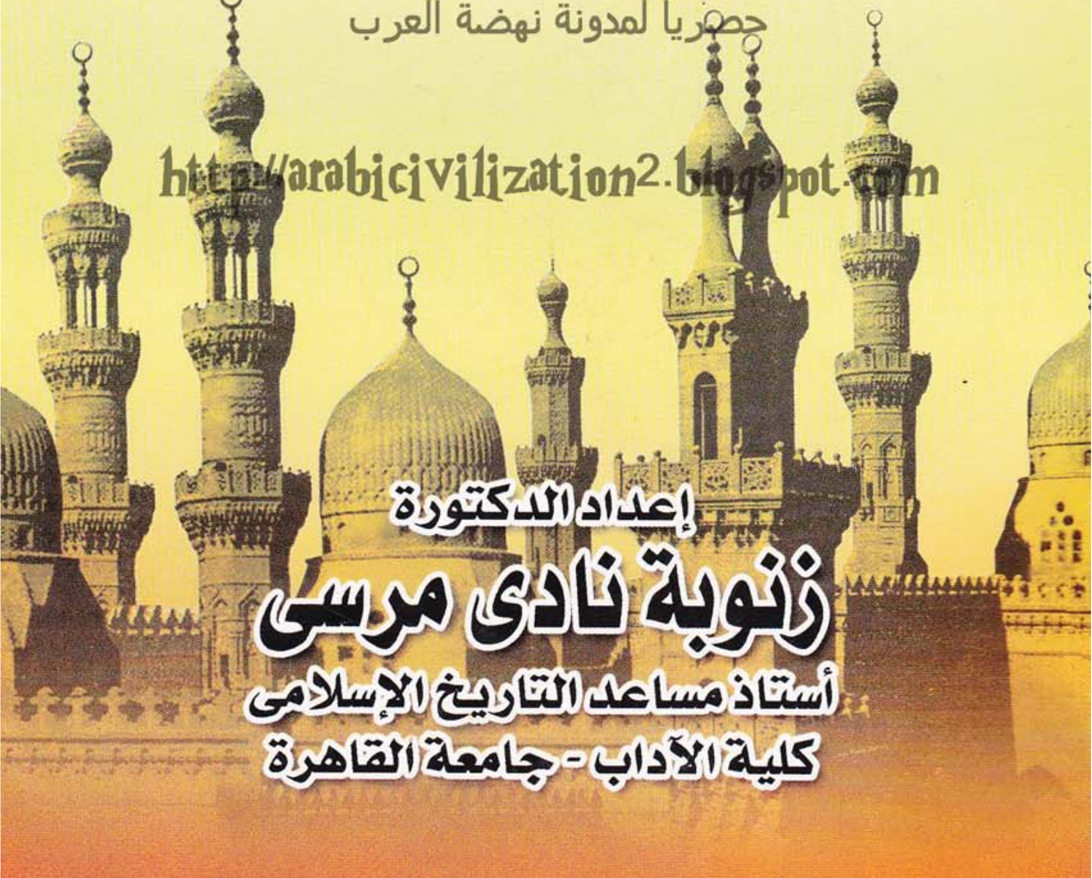
محاضرات فى تاريخ وحضارة الدولة الفاطمية



إعداد الدكتورة

زنوبة نادى مرسى

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة العربية

قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب

أطلق على الدولة الفاطمية هذا الاسم، نسبة إلــى الــسيدة فاطمة الزهراء ولا يزال نسب الفاطميين موضع خــلاف كبيــر فالبعض يرى صحة انتسابهم للبيت العلوى والبعض الآخر ينكر هذا النسب. لم يرحب العلويون بقيام الخلافة العباسية واعتبــروا العباسيين مغتصبين للخلافة مثل الأمويين، ولذلك بدأت مناهضة العلويين للخلافة العباسية منذ قيامها حتى قُدر للــدعوة الــشيعية النجاح فى بلاد المغرب وتأسيس الخلافة الفاطمية هناك.

ولقد انحصرت زعامة العلويين منذ أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى فى جعفر الصادق، وبعد أن توفى جعفر الصادق انتقلت الزعامة إلى حفيده محمد بن إسماعيل وقد حرص أتباعه على التخفى ونشر الدعوى العلوية ســراً أيــام الخلفــاء العباسيين، المهدى، والهادى، والرشيد.

استمر أئمة الإسماعيلية فى التخفى وقد اتخذوا قرية سَلَمْية دار هجرة ومركزاً لهم فى عهد المأمون العباسى، وكان يخــرج منها الدعاة لنشر الدعوة فى البلاد الإسلامية كانت بلاد

المغرب، هدف الشيعة منذ أواخر النصف الأول من القرن الثانى الهجرى لبعدها عن متناول الخلافة العباسية، فأرسل إليها زعماء الإسماعيلية رجلين لنشر الدعوة هناك هما أبــو ســفيان والحلوانى، وبعد وفاة أبو سفيان والحلوانى بالمغرب عهد زعماء

الدعوة الإسماعيلية إلى أبى عبد الله الشيعى بالقيام بالدعوة إلى المذهب الإسماعيلى فى تلك البلاد.

كان أبو عبد الله الشيعى فى اليمن فى ذلك الوقت فغادرها قاصداً مكة فوصلها فى موسم الحج سنة ٢٧٩هـ وسأل أبو عبد الله الشيعى عن حجاج كتامة واجتمع بهم وقد أخفى عنهم حقيقته وقد تعلقوا به لما شهدوه من ورعه وزهده ولما سألوه عن الجهة التى سوف يقصدها قال أنه يريد مصر وقد سروا بصحبته.

استطاع أبو عبد الله الشيعى أن يعرف أحوال حجاج كتامة فلما وصلوا مصر وأخذ يودعهم صعب عليهم فراقه وأقنعوه بالمسير معهم إلى بلادهم حتى أجابهم، وكان التشيع قد انتشر فى بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبد الله ابن الحسن الذى فر من أيدى العباسيين بعد موقعة فخ فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩هـ وقد أقام الأدارسة فى بلاد المغرب دولة علوية سنة ١٧٢هـ ومن ثم كانت بلاد المغرب أرضاً صالحة للدعوة الإسماعيلية فلما ذهب أبو عبد الله الشيعى إلى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠هـ كانت الأمور ممهدة له كما كان التشيع قد انتشر بين المغاربة. وقد ظل أبو عبد الله الشيعى ينشر دعوته سراً ثم كشف عن نواياه بعد التفاف الناس حوله.

ولم يكتف أبو عبد الله الشيعى بنشر الدعوة للفاطميين فى بلاد المغرب بل أخذ يعمل على بسط نفوذهم فى شمال أفريقية ونجح فى الاستيلاء على عدة مدن وامتد نفوذ الفاطميين إلى أكثر

أجزاء بلاد المغرب. أنفذ أبو عبد الله الشيعى بعد أن استقر فى بلاد المغرب ونجحت دعوته إلى عبيد الله بن الإمام الحسين بن احمد وهو بسَلَمْيَة وفداً من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب.

كان الخليفة المكتفى العباسى قد وصله فى ذلك الوقت خبر انتشار الدعوة الإسماعيلية فعهد إلى رجاله بالقبض على عبيد الله فخرج عبيد الله من سَلَمْية بعد أن بلغه خبر نجاح الدعوة فى بلاد المغرب، وأخبر أتباعه أنه سيقصد اليمن وذلك لحرصه على ألا يقع فى قبضة العباسيين، ولما وصل أبو عبيد الله إلى مصر رحب به أتباعه.

لم تستطع الخلافة العباسية القبض على عبيد الله بفضل ما قدمه له أنصاره من معونة – ذلك أنه لما جاءت أوامر الخليفة العباسى إلى والى مصر محمد بن سليمان الكاتب بالقبض على عبيد الله المهدى تمكن أنصار عبيد الله من إقناع الوالى بأنه رجل هاشمى يعمل بالتجارة.

لما بلغ العباسيين أن محمد بن سليمان تهاون فى القبض على عبيد الله ولوا عيسى بن محمد النوشرى على مصر بدلاً منه، وكان كثير من أتباعه يعتنقون عقائد المذهب الإسماعيلى فحذروا عبيد الله المهدى فقرر الرحيل من مصر.

خرج عبيد الله متنكراً فى زى التجار متجها إلى المغرب ولما وصل إلى طرابلس بعث إلى عبيد الله الشيعى يخبره أنه فى

طريقه إليه واستطاع بفضل الأموال التى أعطاها له عامل طرابلس أن يهرب مع أتباعه إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى. وقد ظل عبيد الله طليقاً فى سجلماسة حتى قبض عليه واليها اليسع بن مدرار ووضعه فى السجن مع أتباعه.

وكان أبو عبد الله الشيعى قد نجح فى مد نفوذه على معظم أرجاء المغرب فسار فى قوة إلى سجلماسة ونجح فى إطلاق سراح عبيد الله المهدى. وأخذت البيعة لعبيد الله المهدى بسجلماسة ثم رحل عنها قاصداً إفريقية فى حفل كبير فلما اقترب من رقادة تلقاه أهلها بترحاب. وقد اتخذ رقادة حاضرة له، فى ربيع الآخر سنة ٢٧٩هـ وأمر بذكر اسمه على منابر البلاد وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية.



الدولة الفاطمية فى مصر

امتداد سلطان الفاطمين إلى مصر:

اتجهت أنظار الفاطميين إلى مصر بعد أن استقر سلطانهم فى المغرب وذلك لضعف موارد بلاد المغرب بالإضافة إلى ثورات البربر المستمرة، ويرجع اهتمامهم بمصر إلى ما تتمتع به مصر من موقع استراتيجى هام من النواحى العسكرية والسياسية. وما كان لها من نفوذ فى الحرمين الشريفين، مكة والمدينة، هذا إلى جانب وفرة ثروتها وقربها من بلاد المشرق، مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين، هذا إلى جانب رغبة الخلفاء الفاطميين فى اتخاذ مصر قاعدة يوجهون منها الحملات إلى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية تكون هى الخلافة الوحيدة التى يدين لها بالطاعة جميع المسلمين .

بدأ عبيد الله المهدى بعد تأسيس خلافته بالمغرب فى وضع الخطط لغزو مصر، فأرسل فى سنة ٣٠١هـ جيشاً من المغاربة بقيادة ابنه أبو القاسم وقائده حباسة بن يوسف واستولى هذا الجيش على برقة فى طريقه إلى مصر وتمكن من الاستيلاء على الأسكندرية فأرسل الخليفة المقتدر العباسى مؤنسا الخادم لصد هذه الحملة وانتهت هذه المعركة بهزيمة الفاطميين.

أوفد عبيد الله المهدى حملة ثانية لغزو مصر سنة ٣٠٦هـ بقيادة ابنه فاستولى على الأسكندرية سنة ٣٠٧هـ وسار إلى

الجيزة وتمكن الجيش الفاطمى من الاستيلاء على الأشمونين والفيوم. ولما بلغ الخليفة المقتدر العباسى نبأ هذه الحملة أرسل جيشاً بقيادة قائده مؤنس المظفر فانتصر على الفاطميين.

اضطربت أحوال الخلافة العباسية بعد وفاة الخليفة المقتدر فاتخذ عبيد الله المهدى من ذلك فرصة لمعاودة فتح مصر فأرسل إليها حملة فى سنة ٣٢١هـ انتهت هذه الحملة أيضاً "بهزيمة الفاطميين" سنة ٣٢٢هـ، وبعد أن توفى عبيد الله المهدى تولى ابنه أبو القاسم الذى تلقب بالقائم فتابع سياسة أبيه فى غزو مصر فأرسل إليها حملة فى أواخر سنة ٣٢٣هـ فوصلت الأسكندرية فى أوائل سنة ٣٢٤هـ وانضم إليها بعض زعماء المصريين فأرسل إليهم الأخشيد قوة كبيرة استطاعت أن تهزم الفاطميين الذى اضطروا للعودة إلى بلاد المغرب.

نتيجة لذلك لجأ الخليفة القائم إلى المفاوضة فأرسل إلى الأخشيد رسولاً ومعه كتاب يطلب فيه صداقته وكان هذا الكتاب ينطوى على دعوة الأخشيد للدخول فى طاعة الخليفة الفاطمى، ولكن الأخشيد كان يحرص على بقائه على طاعة الخليفة العباسى، وقد ظل محمد الأخشيد على ولائه للخليفة العباسى حتى توفى سنة ٣٣٤هـ.

اضطربت الأحوال فى مصر بعد وفاة محمد بن طغج الأخشيد بسبب غارات الدولة الحمدانية على بلاد الشام ومحاولتهم غزومصر، وقد حرص كافور الذى استأثر بالسلطة بعد وفاة

الأخشيد على تحسين علاقته بالخليفة العباسى والخليفة الفاطمى على السواء، ولم يقم الخليفة المنصور الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه القائم بأى محاولة لغزو مصر لانشغاله بالعمل على استقرار الأمور فى دولته.

تجددت محاولات الفاطميين للإستيلاء على مصر فى عهد الخليفة المعز وساعدتهم الظروف على ذلك، إذ أنه لما توفى كافور سنة ٣٥٧هـ، اضطربت الحالة السياسية فى مصر وقد ساءت الأحوال فى أواخر عهد الدولة الأخشيدية وحل بالبلاد الوباء والقحط، كما اضطربت الحالة المالية حتى اضطر البعض إلى الكتابة للمعز يطلبون القدوم لإنقاذ مصر من الفوضى.

وكان الخليفة المعز قد أخذ فى الاستعداد لفتح مصر قبل وفاة كافور، ففى سنة ٣٥٦هـ أمر بإنشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر، ولما توفى كافور سنة ٣٥٧هـ أخذ فى إعداد المال اللازم لتجهيز الحملة. فعهد المعز إلى قائده جوهر الصقلى بقيادة الحملة التى أعدها لفتح مصر، وقد نجح جوهر فى الاستيلاء على الأسكندرية ولما علم بذلك ذوى الرأى والنفوذ فى الفسطاط استقر رأيهم على مفاوضة جوهر الصقلى وطلب الأمان، وبين جوهر الصقلى فى هذا الكتاب أن جيوش الفاطميين قدمت لحماية أهل مصر، كما عرض لبرنامج الإصلاح الذى سيقوم به. وتعهد جوهر بتأمين المصرين على أنفسهم وأموالهم.

على ان أهل الفسطاط وطائفة من الجند لم يقبلوا ذلك

واتفقوا على محاربة جوهر إلا أن الهزيمة حلت بالمصرين وطلبوا الأمان من جوهر، فأعاد جوهر الأمان للمصريين الذين خرجوا إلى الجيزة لاستقباله، وهكذا بدأ حكم الفاطميين لمصر سنة ٣٥٨هـ.

تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر

بعد أن نجح جوهر الصقلى فى ضم مصر، رأى أن يؤسس مدينة جديدة تكون رمزاً ومقراً للخلافة الفاطمية فى مصر، ومركزاً لنشر دعوتها الدينية. وقد وضع جوهر أساس المدينة شمالى الفسطاط سنة ٣٥٨هـ، كما وضع أساس القصر الذى بناه للخليفة المعز وعُرف هذا القصر باسم القصر الشرقى الكبير، وقد أقام حول المدينة وقصر الخليفة سوراً كبيراً. وأطلق جوهر على المدينة الجديدة أولاً اسم المنصورية تقرباً للخليفة المعز بإحياء ذكرى والده المنصور، وظلت هذه المدينة تُعرف بذلك الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فسماها القاهرة تفاؤلاً بأنها ستقهر الدولة العباسية المنافسة للخلافة الفاطمية، وبأنها ستقهر من يخرج عليها إلى غير ذلك.

أنشأ جوهر بسور القاهرة أربعة أبواب وهى: باب النصر، باب الفتوح، باب زويلة، ويُعرف أحد هذين البابين الأخيرين باسم باب القوس وقد مر منه المعز عند قدومه إلى القاهرة وصار الناس بعد ذلك يتبركون بالمرور منه، أما الباب الثانى فقد تشاءم الناس منه وهجروه.

وكانت حدود القاهرة وقت إنشائها شمالاً موقع باب النصر وجنوباً موقع باب زويلة وما يليه، وشرقاً موقع باب البرقية وباب المحروق المشرفين على المقطم، وغرباً باب سعادة و ما يليه حتى شاطئ النيل.

تأسيس الجامع الأزهر:

أنشأ عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر جامع عمرو بن العاص سنة ٢١هـ وسمى فى عهد ازدهاره تاج الجوامع، وبعد ذلك عُرف بالجامع العتيق ويقع شمالى حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه جيوش الروم وقت الفتح الإسلامى وبعد أن أصبحت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية بنى واليها الفضل بن صالح سنة ١٦٩هـ مسجد العسكر بجوار دار الإمارة، وبعد أن استقل أحمد بن طولون بمصر بنى مسجده المعروف باسمه فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة الشمالية من العسكر.

كانت هذه المساجد الجامعة تعتبر رمزاً لسيادة الإسلام ورمزاً للدولة، فجامع عمرو بن العاص يمثل ظهور الإسلام فى مصر وانضمامها إلى الحكم العربى الإسلامى، بينما تأسيس جامع العسكر فإنه يمثل نجاح الدعوة العباسية فى مصر وانضمام مصر إلى سلطان العباسيين، أما جامع ابن طولون فيمكن القول أن تأسيسه كذلك يُشير إلى قيام الدولة الطولونية وسيادتها.

جامع الأزهر:

لما أسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة رأى أن يبنى مسجداً يكون رمزاً لسيادة الدعوة الفاطمية فى مصر، كما كانت القاهرة رمزاً لسيادة الفاطميين، كما ترجع رغبته فى بناء مسجد مستقل إلى الخوف من إثارة مشاعر السنيين فى مساجدهم، وعلى هذا بدأ بناء جامع الأزهر فى شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ، واستغرق بناؤه سنتين تقريباً وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ.

سمى هذا الجامع فى أول الأمر بجامع القاهرة نسبة إلى مدينة القاهرة، وقد ظلت هذه التسمية تغلب عليه طوال العصر الفاطمى. كما سمى هذا المسجد بالجامع الأزهر، وقيل أن هذه التسمية أُطلقت عليه فى عهد العزيز الفاطمى نسبة إلى القصور الزاهرة التى أنشأها الفاطميون – وقيل أنه سمى بذلك لما سيكون له من شأن بازدهار العلوم فيه، كما قيل أيضاً أنه سمى بذلك نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها وقد ظل هذا الجامع يُعرف بهذين الاسمين "جامع القاهرة، وجامع الأزهر" حتى أوائل القرن التاسع الهجرى، فغلب عليه اسم الجامع الأزهر.

كان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط مدينة القاهرة، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة يسمى المقصورة، وأخر غير مسقوف يسمى صحناً، وقد بنى فيه القائد جوهر الصقلى مقصورة

كبيرة، وأنشأ بها محراباً يسمى الآن القبلة القديمة، وكان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات أيام الجمع والأعياد فى الجامع الأزهر وكثيراً ما كانوا يؤمون الناس فى الصلاة، كما كانت تُقام بهذا الجامع بعض الاحتفالات الدينية.

اتخاذ مصر مقراً للخلافة الفاطمية

انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر:

بعد أن وضع جوهر الصقلى أساس مدينة القاهرة بدأ فى اتخاذ الخطوات التى تجعلها مقراً للخلافة الفاطمية فأمر بحذف الدعوة للخليفة العباسى وجعلها للخليفة المعز، كما ضرب النقود باسم الخليفة الفاطمى، كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، كما أمر جوهر بأن يزاد فى الخطبة العبارة التى يتميز بها الآذان عند الشيعين مثل عبارة "حى على خير العمل" إلى غير ذلك.

كتب جوهر الصقلى بعد أن استقر سلطان الفاطميين فى مصر إلى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه شئون حكم مصر. خرج المعز من المغرب متوجهاً إلى مصر وبصحبته كثير من أتباعه وجمع كبير من رجالات دولته، ودخل المعز الأسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢هـ، فاستقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم قاضى مصر. وقد ألقى المعز كلمة أوضح فيها أسباب اتجاهه لفتح مصر، ثم غادر الأسكندرية فوصل القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٢هـ، وقد خرج فى اليوم التالى أشراف مصر وقضاتها وأعيانها لتهنئته، وبذلك استقر له المقام فى مصر.

أصبحت مصر بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة. وأصبحت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية،

وكانت أمور مصر قد أسندها المعز إلى جوهر الصقلى بعد الفتح، وأبقى على الموظفين المصريين فى وظائفهم، وأشرك مع كل موظف مصرى موظفاً آخر من المغاربة، وظل جوهر يشرف بنفسه على إدارة الدواوين وجباية الخراج حتى سنة ٣٦٣هـ، ثم تسلم منه المعز دواوين مصر وجباية أموالها، وما لبث المعز أن صرف جوهر عن بعض المناصب الإدارية وأسندها إلى رجلين هما "يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن" وبذلك فقد جوهر ما كان له من نفوذ حكم المعز مصر ثلاث سنوات "٣٦٢ إلى ٣٦٥هـ" ركز جهوده خلالها على النهوض بدولته، فعنى بشئون مصر المالية التى أصابها الاضطراب فى الفترة الأخيرة من حكم الأخشيديين. فأمر المعز بضرب عملة مصرية جديدة باسمه تأكيداً لاستقلال مصر الاقتصادى وقد سميت هذه العملة بالدينار المعزى نسبة للمعز الفاطمى. واستطاع المعز بفضل الأموال الوفيرة التى أحضرها معه من بلاد المغرب وحسن سياسته واهتمامه بإعداد قوة حربية أن يقيم فى مصر دولة قوية تناهض الخلافة العباسية.

Black Hawk

الصقر الأسود



العصر الفاطمى الأول

المعز لدين الله (٣٦٢- ٣٦٥هـ)

حكمت الدولة الفاطمية مصر ما يقرب من قرنين (٣٥٨- ٥٦٧هـ) ونستطيع أن نقسم هذه المدة قسمين على وجه التقريب كانت الخلافة الفاطمية تتسم فى كل منهما بسمات خاصة.

ففى القسم الأول ومداه قرابه قرن من الزمن وينتهى فى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر (حوالى سنة ٤٥٧هـ) بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم الشئون الداخلية فى مصر، فنشرت الأمن فى ربوع البلاد ووضعت النظم الإدارية الدقيقة وعنيت بالجيش والأسطول ، واهتم الفاطميون بالزراعة كما نهضت التجارة الداخلية والخارجية ، وازدهرت الآداب والعلوم والفنون .

وفى هذه الفترة أيضاً امتاز الخلفاء الفاطميون بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها فى أيديهم، ولهم على الشعب ورجال الدين النفوذ الأول. وللوزراء المكانة الثانية وفيها امتد النفوذ الفاطمى الخارجى حتى وصل أقصاه ، فخضعت لهم اليمن والحجاز والمغرب والشام .

ومما يؤيد هذه السمات التى اتسمت بها الخلافة الفاطمية فى القسم الأول من حكمها استعراض جهود وحكم الخلفاء الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة .

كان أول الخلفاء الفاطميين فى مصر هو المعز لدين الله ، وقد ركز جهوده فى فترة حكمه على تنظيم شئون البلاد المالية حيث أن مصر كانت وشيكة الخروج من المجاعة الخطيرة التى أصابتها قبيل الفتح الفاطمى ، فمنع المعز النداء بزيادة النيل، كما كانت العادة قديماً وأمر ألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى قائده جوهر حتى إذا تم الفيضان ووصل إلى أقصاه أعلن ذلك للناس واشترك فى الاحتفال بوفاء النيل ، ثم عهد بإدارة شئون مصر المالية إلى رجلين من أقدر رجال ذلك العصر هما يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن فقاماً بما عهد به إليهما خير قيام ، حتى زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة فى وقت قصير .

رأى المعز ضرورة أن يسيطر الفاطميون على بلاد الشام باعتبارها خط الدفاع الأول عن مصر هذا فضلاً عن أن الشام كانت تابعة للدولة الإخشيدية ، وكان من الطبيعى بعد أن سيطر الفاطميون على مصر أن يسيطروا على الشام ، كما وجد الفاطميون فى استيلاءهم على الشام ضرورة للقضاء على القرامطة الذين بدأوا فى مناوءة الفاطميين وكانوا قد احتلوا دمشق سنة ٣٥٧هـ لذلك رأى الفاطميون أن يخلصوا الشام من حكم القرامطة ، كما أن الدولة البيزنطية انتهزت فرصة ضعف الدولة العباسية واستولت على بعض مدن الشام .

لهذا رأى المعز أن يسارع إلى فتح الشام ليمنع زحف الروم جنوباً وليظهر الفاطميون أمام المسلمين فى كل مكان بمظهر حماة الإسلام .

فكأن المعز أراد أن يحقق من وراء فتح الشام غرضين أولهما جذب قلوب المسلمين وخاصة المصريين إليه وثانيهما رغبة الفاطميون فى الوقوف فى وجه الروم.

لهذه الأسباب بعث المعز جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح تمكن من فتح دمشق وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى بعد حذف اسم الخليفة العباسى ، ثم بدأ الصراع بين الفاطميين والقرامطة وذلك أن دمشق كانت تدفع الجزية لزعيم القرامطة ، فأصبحت هذه الجزية لا تدفع إليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه المدينة ، وتلاقى جيش بن فلاح مع جيش القرامطة ووقع ابن الفلاح فى الأسر ، واسترد الحسن دمشق وبدأ هجومه على مصر وعسكر قرب القاهرة، ولكن جوهر الصقلى خرج لقتاله وهزم القرامطة ثم تتبعهم إلى الشام واسترد دمشق وبذلك استقر النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام.

هذا وقد أدرك المعز ما تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر فعنى بالأسطول عناية كبيرة ، وبنى داراً جديدة لصناعة السفن فى المقس وأنشئ بهذا الدار فى عهده القصير ستمائة سفينة حربية .

وعمل المعز على امتداد نفوذه على بلاد الحجاز وتمكن من أن يقيم له الدعوة بمكة سنة ٣٦٣هـ أما المدينة فقد ظلت على ولائها للخليفة العباسى المطيع إلى سنة ٣٦٦هـ فحولت ولاءها للخليفة الفاطمى العزيز .

وكان المعز أول من اهتم بالاحتفال بالأعياد والمواسم والمواكب ونعمت مصر فى عهده بالرخاء والازدهار وقد استن لأول مرة إقامة الولائم فى قاعة الذهب بقصر الخليفة وقد أعطانا أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة وصفاً تفصيلياً لمواكب الخلفاء الفاطميين فى المناسبات المختلفة ومنها عيدى الفطر والأضحى .

العزيز بالله (٣٦٥- ٣٨٦هـ) .

تولى العزيز بالله الخلافة بعد أبيه بعهد منه ، وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وقد اهتم العزيز بنشر الدعوة الشيعية فى مصر وتميز عصره بالنهضة الثقافية ، فقد حول الجامع الزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن ، بعد أن كان معهداً خاصاً بدراسة الفقه الشيعي ، كما أنشأ مكتبة القصر وكانت تحوى أكثر من نصف مليون كتاب فى الفقه واللغة العربية والحديث والتاريخ والفلك والكيمياء وغيرها .

وإذا كان عهد المعز قد امتاز بالتنظيم الداخلى للدولة فإن عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجى وقد استعت رقعة الدولة الفاطمية فى عهده وامتدت من بلاد العرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ومن أقصى الشام شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً .

برزت فى عصر العزيز مشكلة ازدياد خطر القرامطة وأفتكين فى الشام ، وكان أفتكين رجلاً تركياً خرج على طاعة

الدول العباسية وسيطر على دمشق وكتب العزيز إلــى أفتكــين يستميله إليه ويطلب منه الجلاء عن دمشق على أن يكافئه بسخاء ورفض أفتكين وكتب للعزيز يخبره أنه قد استولى على هذه البلاد بالسيف ولا يدين بالطاعة لأحد ، ونصحه يعقوب من بن كلــس بإنفاذ جيش بقيادة جوهر لطرد أفتكين من دمشق بالقوة .

تقدم جوهر سنة ٣٦٦هـ لإجلاء أفتكين عن دمشق وطــرد القرامطة من الشام وأسرع القرامطة بالفرار إلى إقليم الإحساء أما أفتكين فاستطاع أن يكسب تأييد أهل دمشق وقامت خروب طويلة بين الفريقين ولكنها انتهت بهزيمة أفتكين وبعــث إلــى زعــيم القرامطة يطلب نجدته فلبى النداء وكان جوهر فى موقف حــرج فقد نفد تموينه وفقد عدداً كبيراً من جنده فعرض الــصلح علــى أفتكين فوافق أفتكين على أن يجلو جوهر عن دمشق .

وصلت نجدات القرامطة ، فنقض أفتكين الصلح وخرجوا جميعاً لقتال جوهر فتحصن فى مدينة عسقلان حيــث حاصــره أعداؤه فيها حتى نقصت الأقوات ولجأ جوهر إلى المكر والحيلة فطلب من أفتكين المهادنة والتقى الرجلان واتفقا على انــسحاب جوهر فى أمان إلى مصر وخرج العزيز بنفسه وصحب جــوهر على رأس جيش كثيف وتمكنا من هزيمة القرامطــة والقــبض على أفتكين ثم عفا العزيز عنه .

وهكذا بلغت مصر الذروة فى عهــد العزيــز فأصــبحت إمبراطورية واسعة تضم المغرب ومصر واليمن والشام ، وكان

العزيز يرنو ببصره نحو الخلافة الأموية السنية فى الأندلس يريد أن يزيلها ليصبح فى العالم خلافة واحدة هى الخلافة الفاطمية لهذا أرسل العزيز إلى الخليفة الأندلسى يهجوه غير أن الأندلس كانت فى عز قوتها فأرسل صاحبها رداً على خطاب العزيز الجملة المشهورة التى يعرض فيها بنسب الفاطميين .

وكان العزيز قد رأى أن الجيش هو الوسيلة الأكيدة لحماية دولته الكبيرة فوجه عنايته إلى الاهتمام بالجيش وهو أول من استعان من الفاطميين بالعنصر التركى والسودانى فأصبح فى جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة الذين ساعدوهم فى فتح مصر وإقامة دولتهم بها . وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة فى أول الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة غير أنها لم تلبث أن أصبحت سبباً من أهم أسباب ضعف الدولة عندما دب النزاع وقامت أسباب المنافسة بينها :

وفى عهد العزيز نمت ثروة البلاد فعاش الناس فى رفاهية ، وقد مات العزيز فى رمضان سنة ٣٨٦هـ أثناء خروجه لقتال الروم قرب مدينة بلبيس .

الحاكم بأمر الله (٣٨٦- ٤١١هـ).

يعتبر الحاكم من الشخصيات التى اختلف المؤرخون فى الحكم عليها ، فقد حاروا فى تفسير تصرفاته وأوامره ، يقول

صاحب النجوم الزاهرة فى ذلك "كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجُبْن وإحجام ، ومحبة للعلماء وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء ، وكان الغالب عليه السخاء ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط ، وأمر بقتل الكلاب وبيع الفقاع ثم نهى عنه ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً " وقيل عنه أيضاً " كان الحاكم يواصل الركوب ليلاً ونهاراً ويتصدى له الناس على طبقاتهم فيقف عليهم ويسمع منهم ".

مما سبق يتبين اختلاف المؤرخين فى حكمهم على شخصية الحاكم بأمر الله وتصرفاته ، ويقول البعض أن الحاكم كان يريد من بعض أوامره تحقيق غايات طيبة فقد انتشرت فى عهده السرقات لدرجة أقلقت الناس فبدأ يعالج هذه المشكلات فأمر بتعليق المصابيح على أبواب الحوانيت والمنازل ، ثم أمر أرباب الحوانيت بممارسة أعمالهم التجارية ليلاً ، ثم شعر الحاكم أن إنارة الشوارع أعطت فرصة لبعض العابثين فرأى أن يفرض قوانين صارمة فمنع النساء من الخروج ليلاً ومنع الرجال من الجلوس أمام الحوانيت ولما لم تؤد هذه القوانين إلى الأغراض المقصود منها ، فرض منع التجول منذ صلاة العشاء إلى صلاة الفجر مما ترتب عليه إغلاق الحوانيت ليلاً .

وإضافة إلى ما يتعلق بالحياة الاجتماعية فى عهد الحاكم يهمنا أن نذكر أنه فى عهده بدرت بوادر كثيرة مهدت لضعف

الدولة وانحلالها . وبدأت هذه البوادر باجتراء الخلافتين السنتين المعاصرتين على مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها .

أما الخلافة العباسية فلم يكن لديها من القوة ما يمكنها من تدبير هجوم عسكرى إيجابى ، فقد اتخذ هجومها شكلاً آخر ، فجمع الخليفة القادر العباسى عدداً من علماء بغداد وكتبوا محضراً طعنوا فيه فى النسب الفاطمى وأعلنوا أن الحاكم وسلفه أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب وقد كتب هذا المحضر فى سنة ٤٠٢ هـ ووقع عليه عدد من العلماء والقضاة وأرسلت منه نسخ إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى كان له صدى قوى .

ومن أبرز العوامل التى هددت كيان الدولة الفاطمية فى عهد الحاكم ثورة أبى ركوة والذى ذكره صاحب النجوم الزاهرة باسم أبو ركوة الوليد بن هشام العثمانى الأموى الأندلسى وقد جمع هذا الرجل جيشاً كبيراً وهاجم حدود مصر الغربية وانضم إليه بنو قرة من عرب البحيرة وكانوا ناقمين على الحاكم لكثرة ما أوقع بهم وغنم من أموالهم . واشتد خطر أبى ركوة فأرسل إليه الحاكم جيشاً لمقاتلته فهزم الجيش ثم انتهى الأمر بالقبض عليه وإرساله إلى الحاكم وقتله سنة ٣٩٧هـ.

ولا شك أن الهجوم العباسى السلبى على الدولة الفاطمية وثورة أبى ركوة أثرا دون شك على هيبة الدولة الفاطمية وكيانها

وتطور الأمر فى عهد الحاكم إلى أن قام النزاع فى الداخل بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمى من مغاربة وأتراك وسودان واشتد النزاع بين كل فريق وآخر ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن قتل عدد كبير من قادة الجيش .

ومن الأمور التى بدأت تزعزع كيان الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الإسماعيلى وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضى بأن تكون الإمامة فى نسل على بن أبى طالب دون غيرهم وأن تنتقل دائماً من الأب إلى الابن ، لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلوم خاصة تنتقل بالوراثة .

وقد التزم الفاطميون منذ إقامة دولتهم بهذا النظام ، فكان كل خليفة ابناً للخليفة السابق ، ولكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبدالرحيم ، (عبدالرحمن) الياس ويلقب بالمهدى وقد ولاه الحاكم العهد سنة ٤٠٤هـ وأصدر أوامره بضرب اسمه إلى جانب اسم الخليفة على السكة وأن ينقش على البنود والطرز كما أمر أن ينوب عنه فى الخطبة والصلاة والنظر فى المظالم وغيره .

وكادت هذه المحاولة أن تؤدى إلى انقسام خطير بين الشيعة الإسماعيلية لأن فى تنفيذها هدماً لركن قوى من أركان المذهب ولكن لم تنفذ لوفاة الحاكم ، ولقضاء ست الملك أخت الحاكم على هذه المحاولة حيث أرسلت إلى عبدالرحمن من قبض

عليه وقتله وقيل فى رواية أخرى أنه أدخل سكيناً فى سرته ثم غيبها فى جوبه فمات، وأجلست الظاهر ابن الحاكم على عرش الخلافة.

ومما يتعلق بشخصية الحاكم وتصرفاته ما ذكره المؤرخون عن تأليه الحاكم ، يقول أبو المحاسن فى ذلك ثم عنّ له أن يدعى الرُبوبيّة وقرب رجلاً يعرف ا لأخرم ساعده على ذلك" فمال إليه الخليفة طمعاً فى الدنيا والتقرب إليه" وقال أبو المحاسن أيضاً نقلاً عن مرآة الزمان" رأيت فى بعض التواريخ أن رجلاً يعرف بالدُرْزى قدم مصر وكان من الباطنية فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية".

وبدأت الدعوة إلى تأليه الحاكم سراً سنة ٣٩٥هـ، وقد فسرها المؤرخون برغبة الحاكم فى أن يحيط نفسه بهالة من التقديس والإجلال حتى يرضخ رعاياه لحكمه وينفذون أوامره على علاتها ، ومما يجدر ذكره أن فكرة التأليه لم تكن جديدة على الشيعة فقد نادى بها من قبل غلاة الشيعة .

أما عن وفاة الحاكم فقد اختلفت الروايات بشأنها فقيل أنه ركب فى ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١هـ قاصداً جبل المقطم وانقطعت أخباره ولم يعرف أحد مصيره ويتهم بعض المؤرخين أخت ست الملك بأنها تآمرت على اغتياله لسوء تصرفه وأنها اتفقت مع أحد شيوخ كتامه على اغتياله بينما

نفى بعض المؤرخين الاتهام عنها ونسبوا مصرع الحاكم إلى أحد رجال الصعيد الذى قال أنه قتله غيره لله والدين .

ويعتقد الدرزية أن الحاكم قد اختفى سنة ٤١١ ﻫ وأنه سيعود يوماً إذا زالت المفاسد المنتشرة فى العالم فهو الإمام المنتظر عند هذه الطائفة ، ومن المحتمل كما يذكر البعض أن يكون الحاكم هداه تفكيره إلى الاعتزال والاختفاء عن أعين الناس ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار وبذلك يعتقد أنصاره أنه سيعود فى آخر الزمان فى شخص الإمام أو المهدى .

ومما يجدر الإشارة إليه أن دعوة ألوهية الحاكم لم يسهم المصريون فى نشرها، بل كان أغلب القائمين بنشرها من بلاد الفرس حيث حاولت بعض الطوائف إحياء نحلها القديمة وإعادة مجد الدولة الفارسية ليمهدوا بذلك للقضاء على الدولة الفاطمية غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل .

الظاهر (٤١١-٤٢٧ﻫ).

ولى الظاهر فى سنة ٤١١ ﻫ عرش الخلافة بعد أبيه وكان فى السادسة عشرة من عمره فتولت عمته ست الملك الوصاية عليه وأثبتت كفاءة ممتازة فى تصريف شئون الدولة ، ورضيت الطوائف جميعها عن سياستها وظلت صاحبة السلطة إلى أن توفت سنة ٤١٥ﻫ فتولى الوزارة نجيب الدولة على بن الجرجائى ، وتولى الكتابة أبوعبدالله القضاعى ، وتعاونا على إدارة شئون الدولة .

أعلن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضى ثلاثة أعوام على وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التى قيلت فى أبيه ، وحاول مخلصاً تطهير مصر من هذه الفتنة وجاهر بإنكار ما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه وهدد بإيقاع الأذى الشديد على كل من تحدثه نفسه بذلك فى رسالة أذاعها على المصريين .

كان الظاهر سمحاً ، عاقلاً ، وجه عنايته إلى ترقية شئون البلاد وتحسين حالة الزراعة ومما يذكر له أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت بلغت من السوء مبلغاً كبيراً فى عهد أبيه فجدد الهدنة مع صاحب الروم فى سنة ٤١٨ هـ بشروط كان منها أن يفتح جامع القسطنطينية وأن يعين فيه مؤذن ، يخطب فيه للظاهر ، وأن يعيد الظاهر بناء كنيسة القيامة بمدينة القدس .

ومما ينسب للظاهر أيضاً أنه عدل فى الرعية وأحسن السيرة وأعطى الجند والقواد الأموال ، وكان كثير الصدقات ، وينظر فى مصالح الرعية بنفسه وفى إصلاح البلاد .

وفى سنة ٤٢٠ خرج على الظاهر بالشام صالح بن مِرْداس أسد الدولة وحسان بن المفرج بن الجراح واستوليا على بعض الأقاليم ووصلاً إلى غزة فأرسل الظاهر لحربهما جيشاً بقيادة أنوشتكين أمير الجيوش المعروف بالدَّزبرى فانهزم حسان وقتل صالح وبعث أنوشتكين برأس صالح إلى الظاهر بمصر واستولى على الشام ونزل بدمشق .

ومن أعمال الظاهر العمرانية بناء قصر اللؤلؤة عند بـاب القنطرة وكان من القصور المعدودة بالقاهرة ، وكان يتنزه به هو ومن جاء بعده من الخلفاء وأقاربه وكان الخلفاء يقيمون به فـي أيام فيضان النيل .

المستنصر بالله (٤٢٧- ٤٨٧ هـ).

ولى الخلافة المستنصر وعمره سبع سنوات وكان أطـول الخلفاء حكماً فقد حكم ستين عاماً ، وقد بلغت الخلافة الفاطمية فى القسم الأول من حكمه أوجها فى العظمة وزار مصر فـى هـذا النصف الأول الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، وقد أعجب بمـا رآه من غناها وثروتها وحضارتها .

ويميز عهد المستنصر إسناد بعض مناصـب الدولـة لليهود على الرغم من تذمر المسلمين، فقد بـدأ المستنـصر عهده بأن أقر وزير أبيه على بن الجرجائى فى منصبه إلـى أن توفى سنة ٣٤٦ هـ فتولى الوزارة أبومنصور صـدقة بـن يوسف الفلاحى وفى عهد برز رجل يهودى حاز سلطة واسعة وهو أبوسعيد التسترى اليهودى ، وكانـت أم الخليفـة قبـل زواجها من الظاهر أمه فى بيت التسترى ، ولذا عهدت إليـه بتولى نظارة خاصتها واستطاع التسترى أن ينتـزع جميـع سلطات الوزير الفلاحى مما جعله يحقد عليه فـدبر مـؤامرة انتهت باغتياله وقد شجعه على ذلك سخط الرأى العام علـى

سيطرة اليهود على شئون الدولة . وقد غضب الخليفة وأمه لقتل التسترى فأقالوا الوزير الفلاحى وسجنوه ثم قتلوه .

على أن المستنصر رغم هذا أبدى تسامحاً وتعاطفاً مع اليهود فبعد مصرع التسترى أسند إلى أخيه أبى نصر هارون ديوان خاصته ورغم هذا الصراع الذى نشب بين التسترى والفلاحى، ورغم تدخل أم الخليفة فى شئون الدولة فقد نعمت مصر فى الفترة الأولى من حكم المستنصر كما ذكر بالرخاء والاستقرار .

فى الفترة الأولى من عصر المستنصر امتد سلطان الفاطميين على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقية ، وكان اسم المستنصر يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والموصل ، ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين ، فقد خرجت بلاد المغرب سنة ٤٤٣ هـ، وفى سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى التى استولوا عليها من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ ، واستولى روجر النورمندى على صقلية التى كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم وخطب للخليفة العباسى فى سنة ٤٦٢ هـ.

وفى سنة ٤٦٦ هـ تفاقم الحال واضطربت أمور مصر اضطراباً شديداً واختلت أحوالها فقد تعرضت مصر لكارثة

اقتصادية كبرى فقد انخفض ماء النيل ولم تجد الأراضى الزراعية حاجتها من الماء فقلت الأقوات وانتشرت الأوبئة والمجاعات وعرفت هذه الكارثة باسم "الشدة العظمى" خاصة فى سنتى ٤٥٩ ، ٤٦٠هـ فكان يموت كل يوم عشرة آلاف نسمة ، وانتشر الطاعون وزاد الأمر سوءاً وقوع الشقاق والنزاع بين جند الخليفة من السودانيين وقد تعصبت لهم أمه وكانت سودانية وبين الجند الأتراك وقد تزعمهم ناصر الدولة بن حمدان وأصر الأتراك على إبعاد السودانيين عن العاصمة واضطر الخليفة إلى موافقتهم على طلبهم ، فأبعد بعضهم إلى الصعيد والبعض الآخر إلى الوجه البحرى وفى نفس الوقت عاث الأتراك فساداً فى العاصمة ونهبوا قصور الخلفاء والمكتبات وأتلفوا الكتب التى كانت تزخر بها هذه المكتبات .

أصبح ناصر الدولة بن حمدان صاحب النفوذ فى مصر خلال فترة الشدة العظمى ، وتولى الأتراك جميع المناصب الكبرى واستبدوا بالسلطة دون الخليفة وحذفوا اسم الخليفة من الخطبة فى الوجه البحرى وقبضوا على أم الخليفة وصادروا أموالها، وتمكنت من الفرار إلى بغداد وعجز المستنصر عن أن يصنع شيئاً لعلاج هذه الشدة .

استفحلت المشكلة الاقتصادية وما ترتب عليها من فوضى سياسية واجتماعية فعهد الخليفة بالوزارة إلى أبى محمد الحسن اليازورى فانفرد بالحكم تسع سنوات ونجح فى التخفيف من

الأزمات ولكن الخليفة ما لبث أن أقدم على قتله فى سنة ٤٥٩ هـ وقد اتهمه بأنه راسل عدوه طغرلبك السلجوقى وكانت نهاية هذا الوزير بداية فترة اضطراب فقد ولى الوزارة أربعون وزيراً خلال تسع سنوات واضطر المستنصر إلى أن يستنجد بوالى عكا بدر الجمالى فلبى الدعوة ومنحه السلطات المطلقة لإنقاذ الدولة ، وتلاشت منذ ذلك الحين سلطة الخليفة وبدأ عهد سيطرة الوزراء .

العصر الفاطمى الثانى

عصر الوزراء العظام

بلغت الخلافة الفاطمية فى النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها وأقصى اتساعها ، ولكن عوامل الضعف بدأت تظهر على هذه الدولة وتؤثر فى كيانها فى النصف الثانى من حكم هذا الخليفة وبدأ عصر جديد هو عصر الضعف والانحلال .

يبدأ هذا العصر بتولى والى عكا بدر الجمالى أمور مصر لتتلاشى بذلك منذ ذلك الحين سلطة الخليفة ليبدأ عهد سيطرة الوزراء . فقد أصبح الوزراء أصحاب السلطة دون الخلفاء .

كان المستنصر قد ضاق باستبداد الأتراك وفسادهم وكان بدر الجمالى عند حسن ظن الخليفة به فاستطاع أن يوطد الأمن ويعيد النظام وقضى على القبائل البدوية التى كانت قد سيطرت على مديرية الشرقية فترة طويلة واهتم بتحصين القاهرة .

وافتتح بدر الجمالى عصراً برز فيه وزراء عظام سلبوا سلطة الخلفاء وتدخلوا فى اختيار الخلفاء الضعاف ، وحازوا الثراء إلى جانب السلطة وظهر من هؤلاء الوزراء الكبار : الأفضل بن بدر الجمالى فى عهد المستعلى والآمر ، والأكمل بن الأفضل فى عهد الآمر والحافظ ، وبهرام ورضوان فى عهد الحافظ ، وابن السلار وابن مصال فى عهد الظافر وطلائع بن

رزيك وابنه أبوشجاع العادل فى عهد الفائز ، وشاور وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب فى عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين .

وكان لتولى بدر الجمالى الوزارة نتائج أخرى كثيرة أهمها إضافة عنصر جديد إلى العناصر المكونة للجيش الفاطمى فقد كان هذا الجيش فى أول أمره مكوناً من المغاربة وخاصة قبيلة كتامة الذين أتوا مع جوهر لفتح مصر ، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك واستخدم عدداً كبيراً منهم فى جيشه ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان فى الجيش الفاطمى ، فلما ولى المستنصر استكثرت أمه من السودان فقد كانت منهم ، حتى يقال إنهم بلغوا نحواً من خمسين ألف أسود واستكثر هو من الأتراك ، فتجدد النزاع بين العنصرين وقامت بينهما الحروب التى أدت إلى خراب البلاد .

ثم قدم بدر الجمالى من عكا وكان أرمنياً وصار معظم الجيش من الأرمن ، وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمى فأصبح يتكون من المغاربة والعرب والأتراك والسودان وبدأت تظهر أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر مما أدى إلى ضعف البلاد وكان أسوأ نتائجه ضعف الجيش الفاطمى وبالتالى ضعف الدولة نفسها .

ومن المظاهر التى ميزت العصر الفاطمى الثانى والتى أدت إلى ضعف الدولة أن معظم خلفاء العصر الثانى تولوا

الخلافة وهم أطفال صغار مما زاد فى شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم وقد ولى هؤلاء الخلفاء فى هذه السن لأن نظام الوراثة كما ذكرنا عند الشيعة الإسماعيلية كان يقضى أن تكون الإمامة فى نسل على بن أبى طالب وأن تنتقل من الأب إلى الابن كما كان من الشروط الهامة لصحة الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية الوصية أو "النص" أى أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده وهم يعتبرون النص بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الإمام السابق وهو شرط هام من شروط صحة الإمامة ويشترط فى النص عندهم أن يصدر عن الإمام عند موته ، بمعنى أنه إذا صدر عن الإمام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فإنه لا يؤخذ إلا بالنص الأخير الذى صدر عنه عند موته لأنه فى رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة .

وفى كل مرة خولف فيها نظام الوراثة كما نص عليه المذهب حدث انقسام مذهبى سياسى وهذه الانقسامات السياسية المذهبية وقد حدثت كلها فى العصر الفاطمى الثانى هزت الدولة هزات عنيفة وكانت من أهم العوامل التى أدت إلى إضعاف الدولة وانحلالها .

المستعلى بالله (٤٨٧ – ٤٩٥ هـ)

بعد وفاة المستنصر ولى ابنه المستعلى دون أخيه أبى منصور نزار الذى كان قد عهد أبوه المستنصر له بولاية العهد ، فقد قال الوزير القائم بالحكم بأن النص والوصية للابن الأصغر

أبى القاسم أحمد الذى ولى الخلافة باسم المستعلى وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية المستعلى وانقسم الإسماعيلية إلـــى فــرقتين المستعلية والنزارية .

أدى هذا الانقسام إلى إضعاف الدولة الفاطمية ، فقد ناصب النزارية المستعلية فى مصر العداء ولم يلق الخلفاء الفاطميون منذ عهد المستعلى أعداء أشد قسوة من النزاريين مما أدى إلى انحلال الدولة وإضعافها .

وفى عهد الخليفة المستعلى بدأت فترة حاسمة أثرت فـــى تاريخ الدولة الإسلامية فقــد بــدأت الحــروب الــصليبية وبــدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام فاستولوا على نيقيا ثم زحفوا نحو أنطاكية وتابعوا زحفهم إلى بيت المقدس ، ولما علــم الأفضل بقدوم الصليبيين قاد جيشاً من عشرين ألف جندى بمصر ، ولكن لحقت به الهزيمة فالتجأ إلى عسقلان ورأى الانسحاب إلى مصر ليعد جيشاً أكثر قوة وقاد هذا الجيش الجديد ســعد الدولــة النواسى والتقى بالصليبيين فى عسقلان ولقى سعد الدولة حتفه ، واستمر الصليبيون يستولون على المدن الساحلية فـــى فلــسطين والشام .

الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ)

توفى الخليفة المستعلى سنة ٤٩٥ هـ فولى الوزير الأفضل بن الجمالى أبا على ابن الخليفة ولقبه الآمر بأحكــام الله وكــان

عمره خمس سنين ويتضح من هذا علو شأن الوزير الأفضل ومكانته فى الدولة .

وقد استغل الأفضل بن بدر الجمالى سلطته فى عهد الآمر ، فلم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية ومبادئهم الأساسية التى قامت عليها الدولة ، بل أخذ يميل ميل السنيين وقد تجلت هذه الظاهرة فى إلغائه الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد ابنته فاطمة وعلى بن أبى طالب ومولد الخليفة الفاطمى بل ذكر المصادر أنه أغلق دار العلم التى أنشأها الخليفة الحاكم وكانت تحوى آلاف من الكتب الشيعية مما أدى إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام .

شعر الآمر بخطورة ما أقدم عليه وزيره الأفضل من هدم لمبادئ الشيعة وكان الآمر قد بلغ سن الرشد ورأى أن يسترد سلطته المسلوبة فدبر بالاشتراك مع أبى عبدالله محمد بن البطائحى وكان أحد خواص الوزير مؤامرة انتهت باغتيال الأفضل وتولى ابن البطائحى الوزارة سنة ٥١٥ هـ.

واسترد الآمر سلطته فى عهد وزيره البطائحى وأمر بنقل ثروة وزيره المقتول الأفضل إلى قصر الخلافة ، وتم ذلك فى حوالى شهرين حيث بلغت ثروته ستة ملايين دينار

ولكن سرعان ما ضاع نفوذ الآمر حيث تولى الوزارة وزير أكثر منه طموحاً وهو أبو على بن الأفضل سنة ٥٢٤ هـ.

ويمتدح المؤرخون أخلاق الآمر وسياسته فقد أحسن معاملة أهل الذمة واهتم بتشجيع الشعراء فظهرت نهضة أدبية كما قام بكثير من الإصلاحات فبنى قصر الهودج فى جزيرة الروضة وأنشأ جامع الأقمر .

وكان الآمر قد حرص على أن يخلفه أحد أولاده فلما رزق طفلاً فى ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ سماه أبا القاسم الطيب وأعلن توليته عهده غير أن الخليفة سرعان ما قتل فى ذى القعدة من هذه السنة فقبض على زمام السلطة بعض رجال الجيش ووقع اختيارهم على أبى الميمون عبدالمجيد ابن عم الآمر ليتولى الخلافة فأخفى أمر الإمام الطيب وبايعه الناس بولايته العهد ولقب الحافظ لدين الله ، وأقيم كفيلاً لحمل منتظر لأن الآمر لما مات ترك إحدى زوجاته حاملاً.

الحافظ لدين الله (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ)

تولى الحافظ الخلافة ولم تستقر له الأمور ، ولم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته فى الدولة بسبب ثورة الجنود عليه ، وتوليتهم قائداً يدعى أبو على أحمد بن الأفضل الوزارة . فبدأ هذا الوزير عمله بمنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة ، كما سجنه فى خزانة وصار لا يسمح لأحد بزيارته إلا بإذنه ، وأمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة واستولى الوزير على جميع ما

فى قصر الحافظ من الذخائر والأموال زاعماً أن ذلك كان لأبيه واستأثر منذ ذلك الوقت بالسلطة والنفوذ .

لم يكن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل إسماعيلى المذهب بل كان إمامياً لهذا اتخذ بعض الإجراءات كان من شأنها إضعاف مذهب الإسماعيلية فأمر بإسقاط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق الذى تنسب إليه الإسماعيلية من الخطبة ، كذلك عين سنة ٥٢٥ هـ أربعة قضاة . اثنين من الشيعة أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى ، واثنين من السنة أحدهما شافعى والآخر مالكى وأعطى لكل منهم السلطة فى إصدار أحكامه وفق مذهبه .

أثارت سياسة هذا الوزير سخط الإسماعيلية فدبروا مؤامرة انتهت بقتله بعد أن ظل مستأثراً بالسلطة سنة وشهراً وأخرجوا الحافظ من سجنه واستعاد المذهب الإسماعيلى مكانته.

لم يكن للحافظ حق شرعى فى الخلافة ذلك أنه لم يكن ابناً للآمر ، وإنما هو ابن عمه ، فلما أطلق سراحه بعد مقتل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل رأى رجال الدولة كما تذكر بعض المصادر أن يعيدوه ولياً للعهد وكفيلاً لولد الآمر الذى لم يعرف مقره حيث أنه لا يصح أن يتولى الخلافة مع وجود الطفل .

على أن الحافظ كان يطمع فى الاستقلال بالخلافة وكما تشير بعض المصادر فإنه ظل يبحث عن ولد الآمر فلما اهتدى إليه بعد شهرين أسرع إلى قتله وأعلن نفسه خليفة وقرئ سجل بإمامته فى ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ.

واتخذ الخليفة الحافظ أبا الفتح يانس وزيراً له ولكنه لم يهنأ بالوزارة فقد زحف والى الغربية بهرام الأرمنى إلى القاهرة فى جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ وحاصرها فاضطر الخليفة إلى أن يسند الوزارة إليه وقد زاد نفوذ بهرام رغم معارضة رجال الخليفة لعدم دخوله فى الإسلام وبعث بهرام يستدعى أسرته وآلافاً من جنسه من أرمينيا للإقامة فى مصر وبلغ عددهم حوالى ثلاثين ألفاً وأساءوا معاملة المصريين مما اضطرهم إلى الاستنجاد بوالى الغربية رضوان بن الولخشى .

جمع رضوان ثلاثين ألف جندى وتقدم إلى القاهرة للقضاء على بهرام ونجح فى استمالة جند بهرام فأسرع إلى الفرار إلى أخيه الباساك والى قوص ، وتولى رضوان الوزارة وتلقب بالأفضل وبدأ فترة اضطهاد للأرمن وكان أول وزير فاطمى يتلقب بلقب "ملك" واحتفظ خلفاؤه من الوزراء بهذا اللقب .

لم يرض الخليفة الحافظ عن سياسة الوزير الجديد رضوان الذى اشتد فى معاملة أعوان بهرام بل همّ بخلع الحافظ بحجة أنه ليس إماماً بل هو كفيل لغيره ، فاستاء منه الحافظ وبدأ الصراع بين رضوان والخليفة ورجحت كفة الخليفة واضطر رضوان إلى الخروج إلى الشام حيث أعد جيشاً كبيراً حارب به جيش الخليفة وانتهى بالقبض على رضوان وقتله ، واستمر بهرام مقيماً بقصر الخليفة يستشيره الخليفة دون أن يعهد إليه بمنصب رسمى حتى مات سنة ٥٣٥ هـ.

شغلت الأحداث الداخلية الدولة الفاطمية عن المحافظة على أملاكها ففى عهد الخليفة الحافظ استولى عبدالمؤمن زعيم الموحدين على جميع أملاك الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا سنة ٥٤٠ هـ ولم يبق للفاطميين سوى مصر ، فقد كان الصليبيون ينتزعون مدن سواحل الشام مدينة بعد أخرى .

الظافر بأمر الله

لم يتخذ الخليفة الحافظ وزيراً له بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين رضوان ابن ولخشى فظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ فخلفه بعهد منه ابنه أبوالمنصور إسماعيل ولقب بالظافر بأمر الله وولى الوزارة الأمير نجم الدين بن مصال ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش .

استمر الصراع على الوزارة فى عهد الخليفة الظافر ، فقد ثار الأمير المظفر على بن السلار والى الإسكندرية والبحيرة ، وقصد القاهرة على رأس فرقة من أعوانه فاضطر نجم الدين بن مصال وزير الظافر إلى الفرار ، وتولى ابن السّلار الوزارة وتلقب بالعادل وتتبعت قواته ابن مصال فى الصعيد حتى قضت عليه وبذلك استقرت الأمور لابن السلار .

كان ابن السلار شافعى المذهب ، رغم أنه كان يتولى الوزارة لخليفة فاطمى شيعى ، فأنشأ سنة ٥٤٦ هـ بالإسكندرية مدرسة للشافعية أسند إدارتها إلى الحافظ السلفى الفقيه الشيعى، فشعر الخليفة الظافر بخطورة بن السلار على الدولة الفاطمية

فعمل على القضاء عليه فقتل بإيعاز منه سنة ٥٤٨ هـ وفى العام التالى اغتيل الخليفة بتدبير من الوزير أبى الفضل عباس الذى خلف ابن السلار فى الوزارة .

أثار مقتل الخليفة الظافر أهالى القاهرة فنشبت المعارك فى طرقات المدينة ، وتعرض أتباع الوزير عباس لكثير من الضرر والأذى بسبب سخط الأهالى عليهم ، كما أن هذا الوزير ما لبث أن لقى حتفه أثناء محاولته الفرار إلى الشام .

الفائز

كان للخليفة الظافر طفلاً فى الرابعة (الخامسة) تولى الخلافة بعد أبيه . ولقب بالفائز بنصر الله سنة ٥٤٩ هـ وقد ساد الفزع القصر الفاطمى وخشيت نساء القصر على مصير الخليفة الطفل فأرسلن إلى طلائع بن رزيك والى الأشمونيين يطلبن منه القدوم لإنقاذهن .

واستجاب ابن رزيك لإلتماس هؤلاء النسوة وتقلد الوزارة بعد قضائه على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة على أثر مقتل الخليفة الظافر وتلقب بالملك الصالح غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة قد أسند إليه الخليفة جميع أمور الدولة فى تقليد توليته الوزارة وقد جاء فيه " فقلدك من وزارته ، وفوض إليك تدبير ممالكه وكفالته ، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين ، وترديد ما هو مردود إليهم من

الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، وكافة رعاياه بالحضرة وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها.

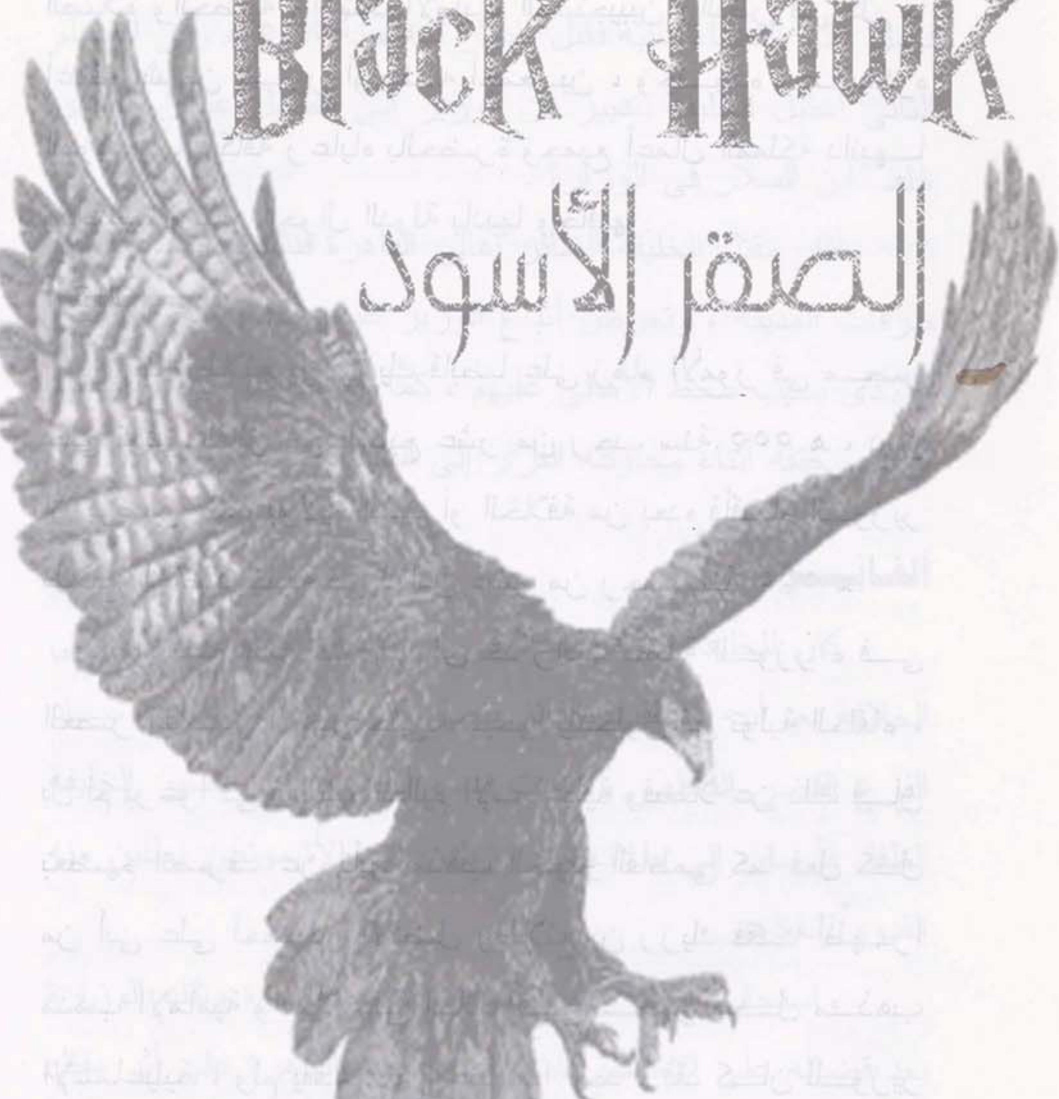
العاضد

ظل طلائع بن رزيك قابضاً على زمام الأمور فى مصر حتى توفى الفائز فى السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ ، دون أن يوصى لأحد بولاية العهد أو الخلافة من بعده فأقام الوزير طلائع العاضد خليفة فى الثامن عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ.

ويتضح مما تقدم إلى أى حد زادت سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الأخير حتى أصبحوا يتدخلون فى تولية الخلفاء ، بل لم يرعوا فى توليتهم تعاليم الإسماعيلية وفضلاً عن ذلك فإن بعضهم انصرف عن تأييد مذهب الخليفة الفاطمى كما فعل كل من أبى على أحمد بن الأفضل وطلائع بن رزيك فقد أظهرا مذهب الإمامية وعملا على إحلاله فى مصر محل مذهب الإسماعيلية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد كان للوزير طلائع بن رزيك مطامح خاصة تجلت فى حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاضد وكان يرجو من وراء هذه المصاهرة أن ترزق ابنته منه بولد فيجتمع لبنى رزيق الخلافة مع الملك .

Black Hawk

الصقر الأسود



السياسة الخارجية للدولة الفاطمية

العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية

أدرك العلويون أن بنى العباس خدعوهم عندما جعلوا شعار الدعوة ضد الأمويين "الرضا من آل محمد" ولكن العلـــويين لـــم يكتشفوا الخديعة إلا بعد فوات الأوان، ولذلك فقد تعرضوا لموجة من الاضطهاد على أيدى العباسيين لا تقل عما تعرضوا له على أيدى الأمويين.

لم يستسلم العلويون للخديعة ا لتى تعرضـــوا لهـــا وإنمـــا ناصبوا الدولة العباسية العداء وبثوا الدعاة فى مختلف الأمـــصار ينشرون الدعوة لآل على بن أبى طالب ويهيئون الأذهان لثـــورة كبرى ضد الخلافة العباسية وقد استمرت ثورات العلويين ضـــد العباسيين واستمرت المعارضة العلوية حتـــى قامـــت الخلافـــة الفاطمية فى مصر سنة ٣٥٨ هـــ وهى الخلافة التى جاء قيامهـــا انتصاراً للعلويين.

وكانت الضرورة السياسية والحربية تحتم على الفـــاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام ولـــم تخف عن جوهر الصقلى تلك الحقيقة، فعمل على فتح هذه البلاد رغبة فى تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى والوقوف فى وجه الروم والقرامطة.

وكان من الطبيعى أن يبدأ الصراع بين الدولتين العباسية والفاطمية بعد قيام الدولة الفاطمية حول الشام والجزيرة العربية.

نجح جوهر الصقلى فى بسط السيادة الفاطمية على بلاد الشام وخطب للخليفة الفاطمى على منابر الشام سنة ٣٠٩ هـ بدلاً من الخليفة العباسى وكان القائد الفاطمى هو جعفر بن فلاح.

كان جعفر بن فلاح قاسياً فى معاملته لأهل الشام فكرهوه ورأوا أن يستنجدوا بقوى خارجية تخلصهم من الفاطميين فاستنجدوا بكل من القرامطة وأفتكين زعيم الأتراك وكان الحسن بن أحمد القرمطى وأنصاره فى البحرين يتمنون مد سلطانهم إلى بلاد الشام التى كانوا يغيرون عليها فى عهد الإخشيديين مما اضطر الإخشيديين إلى دفع إتاوات سنوية إلى القرامطة وقد قطع جعفر ابن فلاح هذه الإتاوة مما أثار سخط القرامطة فأعلنوا عداءهم للفاطميين.

وقد استقر رأى الحسن بن أحمد على أن يعد نفسه لمحاربة الفاطميين فبعث إلى المطيع العباسى وعز الدولة بختيار أمير بنى بويه فى الفرات سنة ٣٦٠ هـ يطلب منهما المساعدة على أن يتولى حكم هذه البلاد (مصر والشام) من قبل العباسيين.

وقد رحب البويهيون بمساعدة القرامطة وتقدموا نحو بلاد الشام واشتبكوا مع القائد الفاطمى جعفر ابن فلاح فى صراع عنيف واحتل القرامطة دمشق وزحفت جيوشه نحو مصر واقتربوا من القاهرة ولكن جوهر الصقلى نجح فى صدهم

وانسحبوا إلى الإحساء. وقد أعاد القرامطة محاولة مصر سنة ٣٦٣ هـ ولكن المعز نجح فى صدهم انسحبوا إلى بلاد الشام وقد نجح المعز فى استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام.

على أن بلاد الشام ما لبث أن تعرضت لاضطرابات فى أواخر عهد المعزل لدين الله أدت إلى إضعاف الحكم الفاطمى فيها وقد مهدت هذه الحالة السبيل لدخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين بلاد الشام واستقرارهم بها.

ولما تولى الخليفة الفاطمى العزيز حاول إعادة بسط النفوذ الفاطمى على الشام وحاول استمالة أفتكين فى أول الأمر ثم اضطر إلى إرسال جيش بقيادة جوهر الصقلى ورأى أفتكين أن يستنجد بالقرامطة مما أثار مخاوف جوهر فأضطر إلى عقد الصلح مع أفتكين على ان ينسحب الجيش الفاطمى من دمشق ولكن القرامطة هرعوا إلى الشام ونقض أفتكين الصلح وحاصروا جميعا جوهر الصقلى فى عسقلان ولجأ جوهر إلى المكيدة فاستمال أفتكين إليه ونجح فى الخلاص من الحصار وانسحب إلى مصر واضطر العزيز إلى قتال أفتكين والقرامطة ونجح فى هزيمتهما سنة ٣٦٨ هـ.

كان الخليفة العباسى يراقب صراع الفاطميين والقرامطة وأفتكين فى الوقت الذى كان فيه بنو بويه هم أصحاب السلطة فى العراق ورغم أنهم كانوا من الشيعة فقد كانوا فى خوف على سلطانهم فى العراق ولذا ساعد البويهيون القرامطة خلال قتالهم

للفاطميين ولكن البويهين رغم حرصهم على الاحتفاظ بنفوذهم السياسى كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية ولذلك حرص الخليفة الفاطمى العزيز على توثيق صلاته ببنى بويه وتم تبادل الرسائل الودية بين العزيز بالله الفاطمى وعضد الدولة الذى اعترف فيها بإمامة الخليفة الفاطمى.

ولم يدخر الفاطميون جهدا فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز سنة ٣٨٢ هـ فى الموصل كذلك نجح الحاكم بأمر الله الفاطمى فى استمالة أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السيادة فى الموصل فخرج على طاعة الخليفة العباسى القادر بالله سنة ٤٠١ هـ بنشر الدعوة الفاطمية فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة كما أحل اسم الحاكم بأمر الله فى الخطبة محل الخليفة العباسى.

وقد رأى الخليفة القادر العباسى أن يضع حداً للدعوة الفاطمية فى بلاد العراق وأنفذ القاضى أبا بكر الباقلانى إلى الأمير بهاء الدولة يخبره بالخطر الذى يهدد دولته من ناحية الفاطميين ويطلب منه العمل على وقف نفوذهم فعدل بهاء الدولة عن تأييد الحاكم بأمر الله إجابة لرغبة الخليفة العباسى وأرسل جيشاً إلى ابن المقلد (أمير بنى عقيل) اضطره إلى وقف الدعوة للحاكم فى بلاده وإقامة الخطبة للقادر بالله العباسى.

كذلك رأى الخليفة القادر بالله العباسى أن يلجأ إلى سلاح آخر فى محاربته للفاطميين وهو سلاح التشهير بهم والتشكيك فى

نسبهم إلى على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء لعله يستطيع بذلك القضاء على نفوذهم فعقد المجالس التى دعا إليها الفقهاء والقضاء وأصدروا فى سنة ٤٠٢ هـ محضراً يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين وفى شرعية إمامهم وقرئت نسخ من هذا المحضر فى بغداد.

ورغم ما بذله العباسيون من مجهود للقضاء على النفوذ الفاطمى فى البلاد العباسية فقد استمر الفاطميون فى بذل جهودهم فى نشر دعوتهم وساعدتهم الظروف التى حلت ببلاد العراق فى مستهل القرن الخامس الهجرى على النجاح حيث حل ببغداد الفوضى بسبب تنافس أمراء بنى بويه على السلطة فرأى الخليفة الفاطمى أن ينتهز هذه الفرصة لمواصلة جهود الفاطميين فى نشر الدعوة ببلاد العراق بينما استمر العباسيون فى بث الدعايات السيئة ضد الفاطميين للحط من شأن الخلافة الفاطمية ولقد سار الخليفة القائم بأمر الله العباسى على سياسة أبيه القادر فى التشكيك فى النسب الفاطمى فأصدر ببغداد سنة ٤٤٤ هـ محضراً [ضمن إنكار انتساب الفاطميين لأهل البيت].

واصل الفاطميون جهودهم وقد لقيت الدعوة الفاطمية تأييداً كبيراً عند الديالمة فى فارس على يد الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الذى قام بدور هام فى نشر الدعوة للخيفة المستنصر بالله الفاطمى فى بلاد الفرس والعراق واستطاع بسياسته أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهى إلى هذه الدعوة وقد

استطاع هذا الداعى الفاطمى بفضل ما أوتيه من حكمة ودهاء وحرصه على ولائه للدولة الفاطمية أن ينجح فى تحويل كثير من أهالى هذه البلاد إلى المذهب الفاطمى مما أدى إلى ضعف نفوذ العباسيين فى بعض بلاد المشرق.

واستمر الاضطرابات فى بغداد وكان من عواملها أيضاً ثورات الجند الذين كانوا يتألفون من عناصر مختلفة منها العرب والديلم والأتراك وقد أثار هؤلاء الجند كثيراً من الشغب فى بغداد. وكان العنصر التركى أقوى هذه العناصر نفوذاً فقد تدخل فى عزل بعض أمراء بنى بويه وتوليتهم.

وكان من قواد بنى بويه الأتراك فى ذلك الوقت أبو الحارث أرسلان البساسيرى الذى أعان الملك الرحيم فى الاستيلاء على البصرة سنة ٤٤٤ هـ من يد أخيه أبى على بن أبى كاليجار ووطد سلطانه بها وقد ازداد نفوذه فى العراق بعد أن عينه القائم بأمر الله رئيساً للأتراك وما لبث أن استبد بالسلطة فى بغداد حتى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه ضعيفى الجانب.

على أن العلاقة ما لبثت أن تغيرت بين الخليفة العباسى وزعيم الأتراك أبو الحارث أرسلان البساسيرى الذى أصبح يرى وجوب الانحياز إلى الفاطميين بعد أن ساءت علاقته بالخليفة العباسى وأيقن من إعراضه عنه ولم تكن الحالة فى بلاد العراق خافية عن السلاجقة الذين ازداد نفوذهم إذ ذلك فى شرق الدولة

الإسلامية والذين عمدوا إلى انتهاز هذه الفرصة لمواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضى هذه الدولة بعد أن دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ .

واصل الفاطميون جهودهم فى محاربة الخلفاء العباسيين فأيد المستنصر بالله الفاطمى أبا الحارث البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى كما عمل على إمداده بالمال والخيل والسلاح كما ظهر إخلاص المؤيد فى الدين للخلافة الفاطمية فيا قام به من جهود لمؤازرة حركة البساسيرى فى العراق والتى نجحت بدخوله بغداد سنة ٤٥٠ هـ عاملاً الرايات المستنصرية وفى يوم الجمعة الثالث عشر من ذى القعدة أقام البساسيرى الخطبة بجامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمى كما أمر بأن يؤذن بالآذان الفاطمى ثم خطب للخليفة الفاطمى على جميع منابر بغداد وضرب السكة باسمه وعلى الرغم من جهود البساسيرى فى سبيل نشر نفوذ الخلافة الفاطمية فإنه لم يتلق من الخليفة المستنصر ما يشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطانه فى العراق فقد تخوف المستنصر من أطماعه ولكن البساسيرى رغم ذلك حرص على إخلاصه للخليفة الفاطمى وأخذ يتابع انتصاراته فى بلاد العراق حتى استولى على واسط والبصرة وأمر بإقامة الخطبة فيهما للمستنصر بالله.

على أن السلاجقة الذين استقرت لهم الأمور فى ذلك الوقت بذلوا جهدهم لإعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى مقر خلافته حتى

تيسر لطغرلبك القضاء على البساسيرى فى ذى الحجة سنة ٤٥١ هـ وأعاد الخطبة فى بغداد للخليفة العباسى.

وجه السلاجقة سياستهم بعد أن قبضوا على زمام الأمور فى بغداد إلى مناهضة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشرق الإسلامى كذلك حرص هؤلاء على تعقب دعاة الإسماعيلية الذين قاموا بنشر الدعوة للفاطميين فى بلاد الفرس وكان لاضطراب الحالة الداخلية فى مصر فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى أثر كبير فى ضعف الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق كما واجهت الدعوة الفاطمية منذ أوائل القرن السادس الهجرى كثيراً من الصعاب التى مهدت الطريق للقضاء على هذه الدعوة حتى انتهى الأمر بسقوط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ.

العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية بالأندلس

تتبع العباسيون بعد أن قامت دولتهم أبناء البيت الأموى وقد استطاع بعضهم الفرار من قبضة العباسيين فهربوا إلى الأندلس حيث نجحوا فى إقامة دولة أموية وبعد أن قامت الخلافة الفاطمية فى المغرب كان من المتوقع أن ينشب العداء بين الأمويين السنة والفاطميين الشيعة ولاشك أن قيام الخلافة الفاطمية فى إفريقية ونشاط دعاتها أصبح خطراً يهدد كيان الأمويين بالأندلس وقد اشتد العداء بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية بالأندلس فى عهد المعز لدين الله حيث هاجمت إحدى السفن الأندلسية سفينة فاطمية فجهز المعز أسطولاً سيره إلى الأندلس وانتصر على الأمويين.

وقد بذل عبد الرحمن الناصر جهده فى محاولة للصلح مع المعز فرفض المعز إجابة طلبه وقد واصل عبد الرحمن الناصر جهوده وأخذ يوالى إنفاذ رسله ورسائله إليه رغبة فى مصالحته. ثم شرع بعد أن أعرض المعز عن عقد صلح معه فى إعداد قواته وسيرها ونجحت فى هزيمة الفاطميين سنة ٣٤٦ هـ وكان ذلك مما أثار سخط أهالى المغرب الأقصى على الفاطميين فجهز المعز جيشاً ضخماً لاستعادة سلطان الخلافة الفاطمية على تلك البلاد وتولى قيادته جوهر الصقلى الذى نجح فى استرداد سجلماسة وفاس.

واستمر النزاع بين الفاطميين والأمويين بالأندلس فى عهد الحكم المستنصر الذى أرسل حملة سنة ٣٦٣هـ إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط للقضاء على الدعوة الفاطمية وتمكنت هذه الحملة من بسط سلطان الأمويين على تلك البلاد وأقيمت الدعوة للحكم المستنصر على المنابر.

استمر العداء بين الفاطميين والأمويين فى الأندلس بعد وفاة المعز واشتد فى عهد الحاكم بأمر الله برز فى صورة ثورة قام بها أبو ركوة الذى ينتسب إلى هشام بن عبد الملك بن مروان وكان قد نزح إلى برقة واستقر بين قبيلة بنى قرة ثم أظهر دعوته لعمه فلقيت دعوته قبولاً فى برقة كما استجاب إليه بنو قرة الذين كانوا ساخطين على حكم الحاكم بأمر الله وقد استطاع أن يهزم جند الحاكم وبسط سلطانه على برقة سنة ٣٩٥ هـ وضرب

السكة باسمه وقد أعد الحاكم العدة لمحاربته وقد استفحل أمره وأخذ يتطلع إلى امتلاك مصر.

شعر الحاكم بخطورة الأمر فأعد جيشاً كبيراً لقتال أبى ركوة وانهى الصراع بقتله بعد أن كلف الدولة الفاطمية كثيراً من الأموال.

الدولة الفاطمية وبلاد المغرب:

كان نجاح الفاطميين فى إقامة دولتهم بالمغرب قد تم بتأييد بعض القبائل هناك خاصة صنهاجة وكتامة ولما نجح جوهر الصقلى فى فتح مصر وعزم المعز على الرحيل إليها سنة ٣٦١هـ عهد بحكم المغرب إلى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الذى ظل مواليها للفاطميين بعد رحيلهم إلى مصر.

تغيرت العلاقة بين الفاطميين فى مصر وحكام بلاد المغرب بعد ظهور المعز بن باديس الذى أعلن خروجه على طاعة المستنصر الفاطمى وأمر بحذف اسمه من الخطبة والسكة وأقام الخُطبة للقائم بأمر الله العباسى كما أمر بلبس السواد شعار العباسيين وأعد أعلاماً سود وملابس سوداء لرجال الدولة.

رأى المستنصر أن يستعين بقبائل بنى هلال الذين كانوا يستقرون فى الصعيد فى محاربة بنى زيرى فسار بنو هلال إلى برقة تابعوا سيرهم إلى إفريقية والتقوا بجيوش المعز بن باديس ودارت الحرب بين الفريقين فى ذى الحجة سنة ٤٤٣هـ وقد استمر بنو هلال فى تعقب ابن باديس الذى أشار على أتباعه

بالانتقال إلى المهدية واتخذها مقراً له ولم يزل مقيماً بهـا حتـى توفى سنة ٤٥٤ هـ فخلفه ابنه تميم الذى تقلص فى عهده ملـك بنى زيرى.

وقد تعذر على الدولة الفاطمية نتيجة الصعاب التى واجهتها فى مصر والشرق الإسلامى أن تحـتفظ بـسيادتها علـى بـلاد المغرب فأقيمت الدعوة للعباسيين فى هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين التى قطع أميرها الدعوة للخليفة العباسى المقتفى وتلقب بلقب أمير المؤمنين.

النفوذ الفاطمى فى صقلية:

كانت جزيرة صقلية تتبع الدولة البيزنطية حتـى فتحهـا الأغالبة سنة ٢١٢ هـ وانتشر الإسلام واللغة العربية فى جزيرة صقلية وصارت معبراً تعبر منه الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا وظلت صقلية خاضعة للأغالبة حتى قامت الدولة الفاطمية وقامت فى صقلية أول محاولة ترمى إلى إعادة صقلية إلى حكـم العباسيين ولكن الفاطميون استطاعوا أن يقضوا عليها واستعادوا سيادتهم على هذه الجزيرة.

كان الفاطميون يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الجزيرة لاتخاذها قاعدة لأسطولهم فى البحـر المتوسـط لـصد الحملات التى يوجهها الروم نحو إفريقية إلى جانب ما اشـتهرت به من خصوبة وثروة معدنية. ولهذا استمروا فى إرسال ولاتهـم غليها حتى قامت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد فلما قضى علـى

هذه الثورة عين المنصور الفاطمى الحسن على الكلبى والياً على صقلية سنة ٣٣٦ هـ وفى عهد اشتد النزاع بينه وبين مسيحى صقلية الذين استعانوا بالدولة البيزنطية لنجدتهم فلبى طلبهم وأنفذ قواته إلى صقلية حيث اشتبكت مع قوات الحسن الكلبى وحلت الهزيمة بالجيش البيزنطى واضطر الإمبراطور إلى طلب الصلح.

على أن الإمبراطور البيزنطى لم يحترم شروط الصلح الذى عقده مع الحسن الكلبى وأرسل إلى صقلية حملة سنة ٣٤٥هـ تمكنت من فتح بعض مدنها لكن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات وانسحبوا إلى قلورية.

استمرت الحالة مضطربة فى صقلية فى عهد المعز من جراء تهديد البيزنطيين كما استمرت الحرب بين قوات الفاطميين وقوات البيزنطيين الذين تمكنوا من الاستيلاء على بعض مدن صقلية سنة ٣٥٣ هـ ولكن الجند الفاطمى استطاع أن يحل الهزيمة بعد ذلك بالبيزنطيين وأخذ المسلمون فى صقلية يتتبعونهم حتى انتصروا عليهم سنة ٣٥٤هـ.

أخذ النفوذ الفاطمى فى جزيرة صقلية فى الضعف منذ أواخر القرن الرابع الهجرى واقتصر على إرسال الولاة إليها لإدارة شئونها ولكن بعض هؤلاء الولاة مثل أحمد الأكحل أثار الانقسام بين المسلمين بسبب التفرقة فى معاملتهم فاضطر جماعة منهم إلى الاستنجاد بالمعز بن باديس أمير إفريقية سنة ٤٢٧هـ وقد شجع هذا الانقسام البيزنطيين على غزوها فى عهد

الإمبراطور ميخائيل الرابع الذى أرسل إليها حملتين الأولى سنة ٤٢٩هـ ولم تحقق نجاحاً والثانية استطاعت أن تستولى على معظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقى من الجزيرة غير أن المسلمين سرعان ما تمكنوا من استعادة أكثر البلاد التى استولى عليها البيزنطيون.

واستمرت الحروب بين الروم والمسلمين فى صقلية التى سادت فيها الاضطرابات أيضاً نتيجة النزاع بين أمرائها المسلمين والحروب الداخلية وقد مهد ذلك السبيل أمام النرمانديين لغزوها فتمكن روجر النورمندى من الاستيلاء على جميع أرجائها سنة ٤٨٤ هـ.

السيادة الفاطمية فى الجزيرة العربية:

بعد الفتح الفاطمى لمصر ، أبدى الفاطميون اهتماماً كبيراً بمد سلطانهم إلى بلاد الحجاز، حيث الأماكن المقدسة لتصبح لهم الزعامة الروحية بعد أن حازوا السلطة السياسية ، وليسلبوا ما كان الخلفاء العباسيون يتمتعون به من نفوذ دينى .

بدأ أول الخلفاء الفاطميين فى مصر ، المعز لدين الله الفاطمى ، تنفيذ السياسة الفاطمية الرامية لبسط سيادتهم على الحجاز استغل فرصة وقوع نزاع بين بنى الحسين وبنى جعفر بن أبى طالب للتدخل فى مجريات الأحداث بالحجاز ، فبعث مندوبين عنه ليصلحوا بين الفريقين المتنازعين ، وشعر الحسن بن جعفر أمير مكة بالامتنان للمعز ، فدعا له على منابر مكة

فى سنة ٤٣٨ هـ ، وامتد النفوذ الفاطمى أيضاً إلى المدينة المنورة فصارت الخطبة للخليفة الفاطمى.

عمل الخليفة المعز الفاطمى على تثبيت سلطته على مكة والمدينة بالأموال التى صار يرسلها إليها ، وظلت الخطبة له فى بلاد الحجاز ، فبعث إليها سنة ٣٦٧هـ إدريس بن زيرى الصنهاجى أميراً على الحاج ، فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة. على أن نفوذ الفاطميين رغم ذلك لم يكن مستقراً فى مكة والمدينة طوال عهد الخليفة العزيز ، فقد دعا أمير حاج العراق لعضد الدولة بن بويه ، اضطر العزيز سنة ٣٨٠هـ إلى إرسال حملة إلى بلاد الحجاز ضيقت الحصار على أهلها ، وانتهى الأمر بإعادة الخطبة للعزيز على منابر مكة والمدينة .

استمر بنو الحسين أمراء مكة على أخلاصهم للخلفاء الفاطميين ، وحاول العباسيون بشتى الوسائل القضاء على النفوذ الفاطمى دون جدوى. ولكن تبدل الأمر فى عصر الخليفة الحاكم الفاطمى ، فقد أعلن أبوالفتوح الحسن بن جعفر الثورة سنة ٤٠٠ هـ ونصب خليفة واتخذ لقب الراشد بالله ، ونجح الحاكم بسلاح المال أن يصرف كثيراً من أنصار أبى الفتوح عن تأييده. واضطر أبوالفتوح إلى الاعتذار للحاكم وأعاد الخطبة له مرة أخرى ونقش اسمه على النقود.

ظلت الحجاز على ولائها للدولة الفاطمية طوال عهدى الظاهر والمستنصر . حتى إذا تولى محمد بن جعفر بن أبى هاشم

دعا للخليفة العباسى ، فاضطر الخليفة المستنصر الفاطمى إلى إنقاذ جيش بقيادة على بن محمد الصليحى إلى مكة سنة ٤٥٥هـ، أعاد النفوذ الفاطمى إلى الحجاز .

تأثرت السيادة الفاطمية فى الحجاز بالأحداث الداخلية التى أصابت مصر فى عهد المستنصر . ولكن الخلفاء الفاطميين ووزرائهم لم ينصرفوا فى العصر الفاطمى الثانى انصرافاً تاماً على نشر الدعوة لهم فى بلاد الحجاز بل إنهم رغم انكماش دولتهم فى هذا العصر ، احتفظوا ببعض النفوذ فى الجزيرة العربية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الدعوة الشيعية التى استمرت دون توقف على يد الدعاة الفاطميين. وعلى الرغم من حرص الخلفاء الفاطميين والعباسيين على بسط سيادتهم على الأراضى المقدسة بالحجاز فإنهم تجنبوا وسائل العنف ولجأوا إلى الطرق السلمية ، حرصاً على إبعاد الأراضى المقدسة عن الصراع والبغضاء .

أما بلاد اليمن ، فقد تضاءل النفوذ العباسى فيها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى نتيجة شقاق أمراء اليمن ونشاط دعاة الإسماعيلية ، وكان أشهرهم رستم بن الحسين بن حوشب اذى دعا لعبيد الله المهدى ، وأعلن ابن رجيم رئيس الإسماعيلية ولاءه للخليفة المعز عند قدومه إلى القاهرة ، واستمر زعيم الإسماعيلية الجديد يوسف بن الأسد على الولاء للخليفة العزيز ثم للحاكم . حتى إذا خلفه فى زعامة الإسماعيلية عامر بن عبدالله الرواحى

اتسع فى الترويج للدعوة الفاطمية فى عهود الخلفاء الحاكم والظاهر والمستنصر .

وخلفه فى الزعامة على بن محمد الصليحى فعهد إليه المستنصر بالولاية، ونجح فى السيطرة على اليمن واتخذ صنعاء عاصمة له ، وعمل الصليحى بعد ذلك على تثبيت النفوذ الفاطمى فى مكة ، فأنعم المستنصر عليه بلقب "عمدة الخلافة".

بعد وفاة الصليحى خلفه ابن المكرم ، فلم يكن كأبيه قوى الشخصية ، فأصبح النفوذ الحقيقى لزوجته السيدة أروى الحرة بنت أحمد بن محمد بن القاسم الصليحى ، وكانت على جانب كبير من الثقافة والأخلاق فلقبها أهل اليمن "بسيدتنا الحرة الملكة" . ووثقت هذه السيدة صلاتها بالمستنصر الفاطمى ، ووافق المستنصر بعد وفاة المكرم على توليه ابنه من أروى وكان لا يزال طفلاً رغم معارضة أمراء اليمن . وكتب المستنصر إلى هؤلاء الأمراء ينصحهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبدالمستنصر فاستجابوا لطلبه .

كان نزاع المستعلى ونزار بعد وفاة المستنصر عاملاً على انقسام طائفة الإسماعلية فى اليمن إلى فرقتين : مستعلية ونزارية . واستطاعت طائفة المستعلية أن تجمع معظم أهل اليمن على الولاء لها . واستمرت السيدة الحرة على ولائها للفاطميين ، فى عهد الخليفة الآمر سنة ٤٩٥هـ، وأبدت ولاءها لابنه القاسم الطيب ولم تعترف بخلافة الحافظ ، فاستعان الخليفة بآل زريع فى عدن

فى الدعوة له . وأراد آل زريع بعد وفاة السيدة الحرة سنة ٥٣٢ هـ أن يبسطوا سلطانهم على قلاع الصليحيين ، ونجحوا فى شرائها سنة ٥٤٧هـ واستمروا على طاعتهم للخلفاء الفاطميين . وكلما زاد ضعف الدولة الفاطمية ضعف نفوذهم فى بلاد اليمن ، حتى سقطت الدولة الفاطمية ، وقامت الدولة الأيوبية ، فبدأ صلاح الدين وخلفاؤه فى بسط نفوذهم فى اليمن .

العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية .

كان امتداد النفوذ الفاطمى إلى بلاد الشام بداية الاحتكاك بين الفاطميين والبيزنطيين فقد أصبحت حدود الدولتين مشتركة . وبدأ البيزنطيون يغيرون على الحدود الشمالية لبلاد الشام، فزحفت قواتهم على أنطاكية سنة ٣٥٨هـ، ودخلوا حلب منتهزين فرصة اشتغال الفاطميين بقتال القرامطة . وتحالف البيزنطيين مع أفتكين التركى ضد الدولة الفاطمية .

عمل الخليفة المعز على استعادة المدن التى فتحها البيزنطيون ، فبعث قائده جعفر بن فلاح ، ولكنه أخفق لانشغاله فى قتال القرامطة . واستغل البيزنطيون فرصة انشغال الفاطميين بحرب القرامطة ، فزحف البيزنطيون إلى حمص وبلعبك ثم فتحوا دمشق وطبرية ، ثم زحفوا شمالاً ففتحوا بيروت وصيدا ، وحاصروا طرابلس ، ولكن الأسطول الفاطمى أنقذها من الحصار ، فانسحب البيزنطيون إلى أنطاكية .

أعد الخليفة العزيز حملة بحرية لغزو الدولة البيزنطية ، ولكن اشتعال النيران فى بعض السفن أدى إلى إخفاقها . حتى إذا تولى الإمبراطور باسيل الثانى بعث إلى العزيز ينشد صداقته ، وعقدت الدولتان صلحاً ينص على :

(١) إطلاق سراح الأسرى المسلمين المأسورين فى الدولة البيزنطية .

(٢) الدعاء للخيفة العزيز فى جامع القسطنطينية .

(٣) توقف الحرب بين الدولتين سبع سنوات .

لم تستمر العلاقات الطيبة طويلاً ، فقد تقدم الإمبراطور باسيل الثانى بالمساعدة لأبى الفضائل الحمدانى أمير حلب الذى استنجد به ليحول دون تقدم الجيش الفاطمى فى الشام ، وبعث الإمبراطور بجيش التقى بالجيش الفاطمى عند نهر العاصى وانتصر الفاطميون سنة ٣٨١هـ، واستمروا فى الزحف إلى حلب ، وعاد أميرها إلى الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطى ففتح حمص ، ولكنه أخفق أمام أسوار طرابلس فعاد إلى بلاده بعد أن ترك حامية بيزنطية على سواحل الشام.

تقدم العزيز على رأس جيش ، وبعث أسطولاً بقيادة عيسى بن نسطورس احترقت بعض سفنه ، وأعاد ابن نسطورس بناء الأسطول ولكن تحطمت معظم سفنه نتيجة عاصفة شديدة . أما العزيز فلم يكمل الزحف فقد شعر بالمرض فى الطريق فآثر العودة . فلما تولى الخليفة الحاكم بعث جيشاً هزم البيزنطيين فى

موقعة (أفاميه) ، وخرج الإمبراطور باسيل الثانى بنفسه واستولى على المدن بين أنطاكية وبيروت . وانشغل الفاطميون بالمشاكل الداخلية عن قتال البيزنطيين فمالوا إلى السلام ، ورحب الإمبراطور بهذه الرغبة ، ورحب الخليفة الحاكم برسول الإمبراطور ، واتفقوا على عقد الصلح على الشروط الآتية :

(١) توقف الحرب بين الدولتين عشر سنوات .

(٢) تمتع المسيحيين فى الدولة الفاطمية بالحرية الدينية والسماح لهم بتجديد الكنائس .

(٣) إمداد الدولة البيزنطية الدولة الفاطمية بحاجتها من الحبوب .

ولكن كان اضطهاد الخليفة الحاكم لأهل الذمة سبباً لتوتر العلاقات بين الدولتين . حتى إذا توفى الحاكم وتولى الظاهر ، عملت عمته ست الملك الوصية عليه ، على تحسين العلاقات مع البيزنطيين ، فبعثت بطريق القدس نقفوراً إلى الإمبراطور يخبره بسياستها الجديدة فى معاملة النصارى وأنها سمحت لهم ببناء الكنائس ، ولكن نقفوراً أخفق فى مسعاه ، فاستمرت الغارات البيزنطية على شمال الشام . حتى إذا شب الظاهر بعث رسولاً إلى الإمبراطور يطلب عقد الصلح ، فاستجاب الإمبراطور ، وعقد صلحاً شروطه :

(١) السماح للإمبراطور بإعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت القدس .

(٢) السماح لرعايا الفاطميين من المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التى هدمها الحاكم إلا ما تحول منها إلى مساجد .

(٣) أن يعين الإمبراطور البيزنطى بطريق بيت المقدس .

(٤) تعهد الفاطميين بعدم الاعتداء على حلب حتى تؤدى الجزية السنوية التى اعتادت تأديتها للدولة البيزنطية .

(٥) ألا تساعد الدولة الفاطمية أعداء الدولة البيزنطية وخاصة صقلية .

(٦) الدعاء للخليفة الفاطمى فى المساجد فى الدولة البيزنطية .

(٧) إعادة بناء جامع القسطنطينية .

(٨) إطلاق سراح الأسرى المسلمين .

(٩) ألا يساعد الإمبراطور أمير الرملة الثائر على الفاطميين .

نقض البيزنطيون الصلح سنة ٤٢٢ هـ فساعدوا أمراء الشام الثائرين على الدولة الفاطمية . ولكن العلاقات بين الدولتين تحسنت فى عهد المستنصر الفاطمى ، فعقدت هدنة بين الدولتين ، وتعهد الإمبراطور قسطنطين الرابع سنة ٤٤٦هـ على مد الدولة الفاطمية بالغلال لمقاومة المجاعة . وتوفى الإمبراطور قبل تنفيذ الإتفاقية ، وخلفته الإمبراطورة تيودورا التى اشترطت على المستنصر أن يقدم لها المساعدات الحربية ضد أعدائها ، ورفض

المستنصر الشرط ، فامتنعت عن إرسال الغلال ، وغضب المستنصر وأرسل جيشاً زحف إلى أنطاكية . وبعثت الإمبراطورة أسطولاً سنة ٤٤٧ ألحق الهزيمة بقوات المستنصر ، فاضطر المستنصر إلى طلب الصلح ، ولكن الإمبراطورة رفضت طلبه ، بينما وثقت صلاتها بطغرلبك السلجوقى وأقامة الخطبة للخليفة العباسى فى مساجد الدولة البيزنطية . واستمر العداء بين الفاطميين والبيزنطيين إلى سقوط الدولة الفاطمية .



وتعهد الإمبراطور قسطنطين الرابع سنة ٤٤٦هـ على مد الدولة الفاطمية بالغلال لمقاومة المجاعة ، وتوفي الإمبراطور قبل تنفيذ الاتفاقية ، وخلفته الإمبراطورة تيودورا التي اشترطت على المستنصر أن يقدم لها المساعدات الحربية ضد أعدائها ، ورفض

القسم الثانى

التاريخ الحضارى

١- نظم الحكم والإدارة فى العصر الفاطمى

أخذ الفاطميون منذ نشأة دولتهم بنظام الوراثة وهـذا النظـام يقتضى أن تتنقل الإمامة من الأب إلى الابن عـن طريـق التعيـين بالنص وقد حرص الفاطميون على اتباع هذا النظام منـذ أن أقـاموا دولتهم وفى عهد الحاكم حاول هذا الخليفة أن يحرم ابنه مـن ولايـة العهد ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس، ولكن هذه المحاولة فشلت، كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفـة الفـاطمى الأمـر (٤٩٥هـ/ ٥٢٤م) فقد ولى الخلافة بعده عمه الحافظ – كما أنه بعـد وفاة الخليفة الفاطمى الفائز ٥٤٩- ٥٥٥هـ ولى الخلافة ابن عمـه العاضد لدين الله.

وكان الخليفة الفاطمى يعين ولى عهده. قبل وفاته ولم يكن له الحق فى أن يعهد بالإمامة من بعده لأكثر من واحد، وهذا ما يميـز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين، فكان الأمويون والعباسيون من بعهدهم يعدون بالخلافة لأكثـر مـن واحد، بل أسرف العباسيون فى تعيين ولاة العهد فعهدوا بالخلافة من بعهدهم إلى ثلاثة أمراء.

وقد أحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، وكانوا يرون فى ذلك إعلاءاً لشأنهم، وقد تلقب الخلفاء الفـاطميون بألقـاب كثيرة منها الخليفة الفاطمى أو العلوى أو أميـر المـؤمنين، وكـان السنيون يطلقون عليهم العبيدين نسبة إلى عبيد الله المهدى أو الخلفاء الفاطميين كما أطلق عليهم الفاطميون نـسبة إلـى الـسيدة فاطمـة الزهراء.

الوزارة فى العهد الفاطمى:

تعيين الوزراء ورواتبهم فى العصر الفاطمى

كان يحتفل بتنصيب الوزير فى الإيوان بالقصر فيخلع عليه خلع الوزارة ويقرأ سجله بحضرة الخليفة أحياناً إذا أراد تشريف وزيره ، وبحضور كبار رجال الدولة والأمراء والقواد، ثم يتوجه إلى داره فى موكب كبير والكل مشاه فى ركابه .

وفى بعض الأحيان لم يكن الخليفة يحضر قراءة السجل ، بل قد يكون تعيين الوزير والخلع عليه مفاجأة له وللحضور من رجال الدولة ، كما كان بعض الوزراء يتقلدون الوساطة أو الوزارة بدون أى احتفال فقد أمر الحاكم ، أبا العباس الفضل بن الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات فى سنة ٤٠٥ هـ بالجلوس للوساطة من غير خلع .

ومنذ وزارة بدر الجمالى أصبح الأمر كله بيد الوزراء أصحاب السيوف واستبدوا بالدولة لذلك كان الاحتفال بتوليتهم الوزارة بتميز بالفخامة وكان يقام فى أول الأمر فى الإيوان ويحضره الخليفة وأبناء الوزير وكبار القواد ورجال الدولة والقضاة والدعاة بل كان يسمح لكافة الناس بالحضور وبعد انتهاء الحفل يعود الوزير إلى داره وعليه خلع الوزارة والقواد والأمراء وكبار رجال الدولة مشاة فى ركابه .

وقد حدث بعض التغيير فى الاحتفال بوزارة المأمون البطائحى إذ خلع عليه أولاً ثم خلع عليه مرة ثانية وقرئ سجله بعد ذلك بيومين كما أن حفل قراءة السجل نقل من الإيوان إلى باب المجلس (قاعة العرش).

ويصف المقريزى أيضاً حفل تولية الصالح طلائع بقوله "وجلس الفائز وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد الجوهر وخلع على ولديه ونعت بالأجل الناصر عضد الإمام زعيم الأنام مجد الإسلام. وتبين سجلات تعيين الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى أن الوزير أصبح فى يده زمام الحكم يتصرف كيف يشاء وأنه أصبح المدبر لشئون الدولة والمسيطر على أمورها الدينية والدنيوية فقد جاء فى سجل تقليد الصالح طلائع بن رزيك وزارة الفائز ما يلى "فقلدك – أى الخليفة – من وزارته، وفوض إليك تدبير ممالكه وكفالته، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين وتدبير ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين".

وكان الخليفة زيادة فى تكريم وزيره، يكتب وخاصة منذ عهد الفائز بخطه على سجل التقليد كلمات فيها معنى المديح والتأييد لوزيره وهو ما يعرف بالتوقيع وكانت نسخ هذه السجلات ترسل إلى الولايات وملوك الأطراف ودواوين الدولة وتقرأ فى الجوامع أيام الجمع حتى يعلم بها الجميع.

وكان من تقاليد الفاطميين أن يخلع الخليفة على وزيره عند التعيين أو فى المناسبات المختلفة وخلعة الوزير هى لباسه الرسمى الذى يميزه عن سائر الأمراء والموظفين وكان زى الوزاء فى الفترة السابقة لوزارة بدر الجمالى يتكون من ثوب قصير يعرف بالدراعة مفتوح من الأمام من النحر إلى أسفل الصدر بعرى وأزرار قد تكون من ذهب أو لؤلؤ ويضع على رأسه عمامه ذات طبقات عديدة وينزل طرفها ليدور حول الحنك ، كما كان يتقلد سيفاً محلى بالذهب علامة على أن أمره نافذ على أرباب الأقلام والسيوف ويضع حول رقبته طوقاً من ذهب .

ولما تولى بدر الجمالى الوزارة وأصبح كبير أصحاب اسيوف والأقلام ، كما أصبح القضاة والدعاة نواباً عنه ، أدخل تغييراً فى زى الوزراء ، فبدلاً من الطوق خلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر . وإلى جانب الخلعة الرسمية كان الخليفة يهدى وزيره ملابس أخرى وغلماناً وخيولاً فقد أهدى العزيز زيره ابن كلس خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من المغاربة ملكه رقابهم ، وابن عمار أهداه الحاكم مع خلع الوزارة خمسين ثوباً من البز الرفيع وفرساً بسرج ذهب.

كما كان من تقاليد الفاطميين ايضاً أن يخلع على الوزير فى عيد النحر وغرة رمضان وفى أول جمعتين منه وفى موسم فتح الخليج وعيد الغدير .

أما عن راتب الوزير فقد كان أكبر راتب بين موظفى الدولة وكان يشمل إلى جانب ما يصرف له نقداً مقررت أخرى عينية وكان راتب الوزير فى الشهر حوالى خمسة آلاف دينار خارجاً عن الإقطاعات كما كان لكل من إخوة الوزير وأولاده مرتبات مقررة تتراوح بين مائتى وثلثمائة دينار، وهذه المرتبات لم تكن نظير عمل يقومون به بل بحكم صلتهم بالوزير كما كان لأتباع الوزير وخدمه رواتب تتراوح فى مجموعها ما بين ثلثمائة وخمسمائة دينار فى الشهر وكان الخليفة يقطع وزيره الإقطاعات المختلفة ، فالخليفة العزيز أقطع وزيره يعقوب بن كلس الإقطاعات بالشام ومصر ، وكانت مساحة هذه الإقطاعات التى يهبها الخليفة للوزير تختلف من وقت لآخر وتتوقف على مدى نفوذ الوزير ومنزلته لدى الخليفة.

وتشير المراجع التاريخية إلى ثروة الوزراء الفاطميين وما كانوا ينعمون فيه من غنى وبذخ وقد أشارت المصادر أيضاً إلى الطرق الأخرى التى كان يسلكها الوزراء لزيادة أموالهم، فكان الوزراء يستغلون إشرافهم على الشئون المالية فيقتنون الأموال والأملاك ، وكان نظام الضمان والالتزام باباً من الأبواب التى استغلها الوزراء فى الثراء على حساب الشعب فقد كان كثير من الوزراء الذين جاءوا بعد ابن كلس يضمنون أموال الدولة فيرهقون الشعب بالضرائب ليستولوا على الفرق بين قيمة الضمان وبين ما جمعوه .

ومن وسائل الثراء التى اتبعها الوزراء أيضاً مصادرة أموال الأمراء وأفراد الشعب وكانت هذه المصادرة شيئاً مألوفاً حتى إن منصور بن عبدون وزير الحاكم أنشأ ديواناً يعرف باسم المفرد توضع فيه الأموال المصادرة من رجال الدولة الذين يغضب عليهم الحاكم وقد توسع وزراء السيوف فى مصادرة الأموال ، فعند دخول بدر الجمالى البلاد صادر أموال الأتراك الذين قتلهم ، كما أن الصالح بن رزيك صادر أموال الناس وتتبع أرباب البيوتات والأعيان فسلبهم نعمهم.

وسيلة أخرى اتبعها الوزراء وهى الاحتكار والاتجار ، فكانوا يحتكرون بعض الأصناف للاتجار بها، وكان اشتغال الوزراء بالتجارة من أسباب ثروتهم ، ويقال أن الصالح بن رزيك قد احتكر الغلات حتى غلت الأسعار واستفاد هو بهذه الزيادة وتشير المصادر إلى الثروة الطائلة لهؤلاء الوزراء . فقد قيل أن يعقوب بن كلس جعل من داره قصراً ينافس قصر الخليفة بما يزخر به من رياش وما يضمه بين جوانبه من حاشية، وقد جعل فى داره خزائن للكسوة وخزائن للأموال وأخرى للأشربة كما اتخذ حرساً خاصاً بلغ عدده أربعة آلاف من العبيد والمماليك وكان يقيم فى شهر رمضان الموائد للفقهاء ووجوه الناس ولجماعة كثيرة من الفقراء وقد خلف جواهر تقدر قيمتها بأربعمائة ألف دينار ، كما ترك أملاكاً وضياعاً وأوانى من الذهب والفضة وغير ذلك من وجوه الأموال .

وقد بلغ الثراء ببعض الوزراء أن كانوا يقرضون الخليفة الأموال للإنفاق على الجند وقت الأزمات الاقتصادية ، ويذكر المؤرخون أن بدراً جمع ثروة طائلة خلال سنوات حكمه بمصر لا يستطيع أحد تقديرها وحصرها وكان من مظاهر ثروته الإنفاق ببذخ على مطابخ قصره كما شغف باقتناء الجواهر الثمينة ، أما ثروة الأفضل بن بدر الجمالى فقد أشار إليها المؤرخون ووصفوا مدى ضخامتها حتى قيل أن الخليفة الآمر استمر أربعين يوماً بدار الأفضل أو دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وفى غيرها من قصور الأفضل ليشرف بنفسه على تدوين ما تم نقله من الذخائر والتحف النفيسة إلى القصر الشرقى .

هذا ويشير المؤرخون إلى أن جميع تلك الثروات كانت تتم مصادرتها بعد موت الوزير أو فى حال الغضب عليه من قبل الخليفة أو فى حالة قتله ، وفى بعض الأحيان كان يتوارثها أهل الوزير ، ولكنها فى جميع الأحوال كانت تحت تصرف الخليفة يستردها فى أى وقت يريد .

لما فتح جوهر الصقلى مصر أقر الوزير جعفر بن الفرات فى منصبه حتى لا يؤدى عزله إلى اضطراب فى أمور الدولة ولم يعزل أحد من الموظفين السنيين، أو يعمل على إحلال المغاربة وغيرهم مكانهم لأنه لم يوجد من المغاربة من هو خبير بالشئون الإدارية فى مصر .

على أن جوهر أشرك بعد ذلك موظفاً مغربياً مع كل موظف مصرى. كذلك عمل جوهر على إضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات حتى اضطر هذا الوزير إلى الاستقالة من منصبه.

عهد الخليفة المعز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربى، إدارة شئون الدولة المدنية والحربية وقلدهما أمور الدولة التى يقوم بها الوزراء على أن ابن كلس لم يسند إليه منصب الوزارة ويُلقب بلقب وزيرا إلا فى عهد العزيز بالله.

ويعتبر يعقوب بن يوسف بن كلس أول الوزراء الفاطميين ويعتبر عهده من أزهى عهود الدولة الفاطمية واستطاع أن ينهض بالدولة سياسيا وحربياً وكان خير نصيب للعلوم والفنون والآداب.

وابن كلس يهودى من أهل بغداد وصل مصر واستطاع الدخول فى خدمة كافور الأخشيدى وأسلم على يديه فى شعبان سنة ٣٥٦هـ. وتمكن من معرفة أحوال مصر المالية والاقتصادية ولذلك عهد إليه المعز لدين الله فى سنة ٣٦٣هـ بأمور الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة – وبعد أن تولى الخلافة جعله وزيره فى أول محرم سنة ٣٦٧هـ. وفى شهر رمضان سنة ٣٦٨هـ لقبه بالوزير الأجل وكان هذا الوزير يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح فيدخل عليه الناس

واتخذ فى قصره عدة دواوين خص بعضها بالنظر فى شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين.

وقد قام هذا الوزير بمجهود كبير فى نشر الدعوة الشيعية والفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية فألف كتاباً فى هذا الفقه – على ما سمعه من المعز لدين الله والعزيز بالله وكان هذا الوزير يجلس بنفسه بالجامع الأزهر يقرأ هذا الكتاب على الطلبة وكان يحضر لسماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وعُرف هذا الكتاب بالرسالة الوزيرية نسبة إلى مؤلفه الوزير.

ضعف شأن الوزارة فى مصر بعد وفاة يعقوب بن كلس وتحولت إلى ما يسمى الوساطة، ففى أوائل عهد الحاكم عزل عيسى بن نسطورس وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة وتلقب بلقب أمين الدولة.

أصبحت الوزارة منذ أواخر عهد المستنصر بالله إلى نهاية العصر الفاطمى وزارة تفويض أى أن الوزير المفوض استبد بالسلطة دون الخليفة. وله أن ينفذ دون الرجوع إلى أمر الخليفة ونهية – ومن أشهر وزراء هذا العصر الوزير بدر الجمالى وكان هذا الوزير والياً على عكا ثم استدعاه المستنصر لينقذ عرش الخلافة ويصلح الأمور فى مصر فلما قدم إلى القاهرة فوض إليه جميع سلطاته.

كما أصبح بدر الجمالى له أن يولى كبار موظفى الدولة ويعزلهم. واهتم هذا الوزير بتنظيم الدولة وإنقاذ اقتصاديات البلاد فعمر الريف وأصلح الترع والجسور حتى صلحت البلاد وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء كما شجع هذا الوزير أصحاب رؤوس الأموال والتجار على الحضور إلى مصر فكثر ورود التجار إليه، مما ساعد على إنعاش التجارة وكان لسياسته الحازمة المصلحة أثر فى عودة الرخاء إلى البلاد فقد اهتم هذا الوزير أيضاً بتنظيم البلاد إدارياً.

كذلك كان لبدر جهوده فى إعادة الهيبة إلى المذهب الإسماعيلى بعد أن صار الناس لا يهتمون به. فأمر بعودة الآذان الشيعى والتكبير على الجنائز ونظم دروساً فى المذهب. كذلك شجع هذا الوزير العمران ومن ضمن إنشاءاته تجديد جامع العطاريين بالأسكندرية وإنشاء جامع المقياس والجامع العتيق بإسنا ومسجد امير الجيوش بأعلى جبل المقطم ومشهد الإمام الحسين بعسقلان كما عمر الجامع الطولونى ومسجد الغمرى بالمحلة الكبرى.

زادت سلطة الوراء فى العصر الفاطمى الثانى وتضخمت ثروتهم ، أصبح فى أيديهم أمر تعين الخلفاء وعزلهم. وكان من ألقاب وزراء التفويض أمير الجيوش وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، وأيضاً لقب ملك الذى لُقب به رضوان بن واخشى فى عهد الخليفة الحافظ "٥٢٤- ٥٤٤هـ".

كانت مصر تنقسم فى العصر الفاطمى إلى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة: هى ولاية قوص وولاية الشرقية، وتشمل تقريباً الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط وولاية الغربية وولاية الأسكندرية مضافاً إليها البحيرة، وكان لكل وال الحق فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته كذلك كان على القاهرة والٍ كما كان للفسطاط وال آخر وقد تمتع كل منهما بمركز ممتاز عند الخليفة.

أما شئون الإدارة فى العصر الفاطمى بمصر فكان يشرف عليها عدة دواوين من بينها ديوان الإنشاء ودواوين الإدارة المالية الخاصة بجباية الأموال وانفاقها ودواوين الإدارة المحلية الخاصة بحكم الولايات وتتقسم الدواوين الرئيسية إلى عدة دواوين يختص كل منها بعمل معين.

كان ديوان الإنشاء من أهم دواوين الإدارة فى العهد الفاطمى فهو يلى الوزارة فى الأهمية وعُرف أيضاً باسم ديوان الرسائل وازدادت أهميته فى العهد الفاطمى عما كان عليه فى عهد الطولونيين والأخشيديين لاتساع الدولة الفاطمية التى امتد نفوذها إلى بلاد الشام وجزيرة العرب، وأصبحت فى حاجة للقيام بدعاية واسعة لخلفائها، مما كان يتطلب من هذا الديوان جهداً كبيراً. وكان يتولى شئون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الإنشاء ويُطلق عليه أيضاً صاحب

الدست الشريف وكان يخاطب بالشيخ الأجل. ومن أعماله تسلُم المكاتبات الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها.

وكان يتولى هذا الديوان أيام الفاطميين جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى وكان لصاحبه مكانة رفيعة عند الخليفة الفاطمى، وكان يعاون صاحب الإنشاء ويليه فى المكانة صاحب القلم الدقيق الذى كان يوقع المظالم ويجالس الخليفة ويأتى بعده صاحب القلم الجليل ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة.

من النظم الإدارية الهامة التى اهتم بها الفاطميون نظام البريد وكان يتولى إدارته فى بعض الأحيان صاحب ديوان الإنشاء كما حدث فى عهد الحاكم بأمر الله وقد اهتم الفاطميون بالبريد وصار أصحابه يُعرفون فى أيامهم بكل ما يصل إليهم من الأحداث وبذلك لم يخف عليهم شئ من أمور دولتهم.

وقد أصبح البريد فى العصر الفاطمى هو وسيلة الاتصال بين القاهرة مركز الخلافة وباقى الولايات التابعة لمصر، وكان إدارته تابعة لديوان الإنشاء، كذلك كان هناك بريد برى فى أيام الفاطميين، كان فى الغالب بواسطة الخيل.

فكان الخليفة الفاطمى يختار للبريد رجالاً ممن عُرفوا بإخلاصهم له واتصفوا بالكفاية والذكاء. وكان البريد خاصاً بأعمال الدولة فى الغالب لا لنقل مراسلات الجمهور. فكان

البريدى يُكلف بحمل البريد العادى إلى النواب والولاة فإن برهن على إخلاصه سُمح له بحمل الرسائل إلى من هم أرقى كالخلفاء والملوك. كما استخدم الفاطميون الحمام الزاجل فى نقل البريد وكان له أشخاص يعنون به ويُدربونه.

كذلك كانت الشرطة من النظم الإدارة التى اهتم بها الفاطميون وتختص بحفظ النظام ونشر الأمن وكان رئيسها يعرف بصاحب الشرطة وهو يتولى أيضا تنفيذ أحكام القضاة وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة فى ولاياتهم ويعاونهم جماعة من الجند.

قسمت الشرطة فى العصر الفاطمى إلى قسمين: هما: الشرطة العليا فى القاهرة والشرطة السفلى فى الفسطاط والعسكر، وكان هذا التقسيم معمولاً به منذ العصر الطولونى ولكن كانت الشرطة العليا فى العسكر والشرطة السفلى فى الفسطاط، فلما تأسست مدينة القاهرة نقلت إليها الشرطة العليا وبقيت الشرطة السفلى فى الفسطاط كما هى.

٢- النظـــام الحـــربى

الجيش والبحريـــة:

اهتم الفاطميون بالجيش والتنظيم الحربى لحـــاجتهم إلـــى جيش قوى يحمى دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم كما اهتموا بإنشاء أسطول لصد أعدائهم الذين يهاجمون دولتهم مـــن ناحيـــة البحر وليكون هذا الأسطول عوناً لقواتهم البرية.

اعتمد المعز فى تكوين جيشه على المغاربة ولمـــا ولـــى العزيز بالله الخلافة استخدم الأتراك والديلم ثـــم ظهـــر عنـــصر السودان فى الجيش فى عهد الحاكم بأمر الله وقد بدأ ظهور هؤلاء فى مصر منذ أيام كافور الأخشيدى وكانوا يجلبون من الجنـــوب كجنود (مرتزقة). وقد تضاعف عددهم فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ويرجع السبب فى كثرتهم إلى أن أم المستنصر كانـــت جارية سوداء وقد ظل العنصر السودانى (السودانيون) يكون فرقة كبيرة فى الجيش الفاطمى حتى زالت هذه الدولة.

كان فى الجيش الفاطمى كذلك عناصر أجنبية وفدت إلـــى مصر عن طريق الوزراء منها جند الأرمن وقد أحضرهم بـــدر الجمالى من بلاد الشام وكثر عددهم بعد ذلك وكـــان مـــن بـــين طوائف الجيش فرق من الجند تنسب إلى الخلفاء مثـــل الآمريـــة والحافظية والظافرية والعاضدية. كذلك كانت هناك فرق تنـــسب للوزراء مثل الوزيرية وتنسب إلى الوزير يعقوب بن كلس ومن الطوائف التى ظهرت فى العصر الفاطمى الثانى، الجيوشية نسبة

إلى امير الجيوش بدر الجمالى، والأفضلية نسبة إلى ابن الأفضل والبرقية وهم جماعة من أهل برقة.

لم يشرك الفاطميون المصريين فى جيشهم فى أول الأمر إلا أنه فى أواخر العصر الفاطمى بعد أن أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين اشترك المصريون فى الدفاع عن بلادهم وأصبح الجيش الفاطمى يتكون من جنود وأمراء مصريين بالإضافة إلى الطوائف الأخرى.

كذلك اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة ليقيم فيها الجند وأسرهم، وذلك لمنعهم من مضايقة السكان. والجيش الفاطمى يتألف من الأمراء وهم القادة وطوائف الجند وبتميز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات فى الأعياد والمواكب الرسمية بحسب مراتبهم.

اهتم الفاطميون بتجهيز الجيش بكل ما يحتاج إليه من أسلحة فأنشأوا خزانة السلاح وكانت تحتوى على أسلحة الجيش مثل السيوف والرماح والسهام وهناك خزائن تمد الجيش بمعداتهم منها خزانة الخيام الخاصة بخيام الجند إلى غير ذلك.

عُرف الجيش الفاطمى بمهارته فى استخدام أسلحة الحرب التى شاع استعمالها فى ذلك الوقت كالحراب والسيوف والمجانيق، وكانت هناك فرقة من النفاطين وكانوا يقومون بإعداد القواري المملوءة بالنفط ورميها على الأعداء ليتمكنوا من هزيمتهم.

كما كانت هناك دواوين لأعداد الجيش وتجهيزه وتنظيم النفقة عليه ويعمل فيها موظفون مدنيون منها ديوان الجيش وهو يشرف على الجنود وإعدادهم وديوان الرواتب الذى يختص بتسجيل عطاء الجنود وديوان الإقطاع وكان يختص بما هو مقطع للجنود، كما يتولى إثبات الاقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال.

اهتم الفاطميون بتعبئة الجيوش وطرق القتال وبرعوا فيها، فبعد أن كانت الطريقة القديمة الكر والفر بلا انتظام أصبحوا يقاتلون صفوفاً كالحائط الممتد تسير بهذا الشكل لمقاتلة عدوهم متضامنين ليس لأحد منهم أن يتقدم أو يتأخر عنه. واستكثر الفاطميون من الخيول فى الجيش واستعملوا العجلات لنقل الذخائر، كما استعملوا العجلات لنقل الأسلحة والجند من مكان إلى آخر، وكانوا يرسلوا بصحبة الجيوش كاتبا وترجماناً وقاضياً وعمالاً ليمهدوا لهم الطريق ويساعدوهم فى تركيب آلات الحرب وأطباء مجهزين بما يلزم المرضى والجرحى من أدوات وأدوية وأشربة.

أما القوات البحرية – فقد اتخذ الفاطميون مراكز لإنشاء السفن الحربية فى الفسطاط والعسكر وجزيرة الروضة التى عرفت فى العصر الفاطمى باسم جزيرة مصر والمقس التى أنشأ بها المعز لدين الله داراً لصناعة السفن، والأسكندرية ودمياط.

كما اهتمت الحكومة الفاطمية بتوفير الخشب الذى يصلح لبناء السفن الحربية التى تنوعت وكان يتكون منها الأسطول الفاطمى مثل "الشوانى" التى امتازت بأبراج للدفاع والهجوم – ومن سفن الأسطول أيضاً الحراريق وهى مراكب حربية كبيرة مخصصة لمهاجمة سفن الأعداء بالنفط، كذلك من سفن الأسطول الطرائد وتستخدم فى نقل الخيول والحمالات والذخيرة، ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين يختار من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول الذى كان له ديوان يعرف بديوان الجهاد، يقوم بالإشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية، ودفع رواتب الرجال العاملين فيها، واستمر اهتمام الفاطميين بالأسطول حتى سقوط دولتهم سنة ٥٦٧هـ.

اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بالاحتفال بتوديع قواتهم عند خروجها لمحاربة الأعداء، وكذلك الاحتفال عند عودة الأسطول منتصراً من الحرب.

٣- النظام القضائى فى العصر الفاطمى

اهتم الفاطميون بالقضاء اهتماماً كبيراً ، فوضعوا له ضوابط محكمة ومنحوا القضاة اختصاصات واسعة ، وحرية كبيرة ، ومن ناحية أخرى فإن الخلفاء الفاطميين احترموا قضاتهم وحافظوا على هيبتهم ، هذا فضلاً عن أنهم كانوا يستشيرونهم فى أدق الأمور ، بل إنهم كانوا يخرجون فى جنازاتهم وتشير المصادر إلى أن العزيز بالله أجلس القاضى محمد بن النعمان بن محمد يوم العيد على المنبر ، كما كان يجالس الخليفة ويؤاكله ويركب معه ويسايره .

كان الخليفة هو الذى يعين القضاة وفق رُسوم معينة ، تبدأ بحضور الخليفة وكبار رجال الدولة ، حيث يخلع عليه الخليفة ثياباً خاصة منسوجة بالذهب أو الفضة ، ثم يُقلد سيفاً وسجلاً يحتوى على مجموعة من الوصايا التى يجب أن يتبعهما بحيث تحقق من خلالها العدالة المنشودة . كما يشتمل السجل أيضاً على أسماء مجموعة من الأمناء والأعوان الذين يساعدون القاضى فى أداء مهمته . ثم يسير القاضى إلى المسجد الجامع ليقرأ السجل على الناس ، ثم ينصرف القاضى إلى داره ليستقبل المهنئين وهو بملابسه الرسمية ذات اللون الأخضر أو الذهبى .

وفى العصر الفاطمى الثانى بعدما استوزر الفاطميون وزراء مفوضين يسمون وزراء السيف وأصبحوا يسيطرون على شئون الخلافة انتقل حق تقليد القضاة إلى هؤلاء الوزراء ، فقد

عين الوزير يعقوب بن كلس محمد الطرابلسى على قضاء دمياط وبلبيس والفرما وغيرها عوضاً عن محمد بن العنمان بن محمد مع أنه لم يكن وزير سيف ، كما ولى الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى القاضى أبا الفرج محمد بن جوهر أيام الخليفة المستعلى بالله وصرفه فى صفر سنة ٤٩٥هـ، وولى أيضاً أبوعلى أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش أربعة قضاة مختلفى المذهب .

وبقيت مناصب القضاء وراثية فى بعض العائلات فى العصر الفاطمى ، كعائلة النعمان المغربية التى تولى القضاء منها : على بن النعمان سنة ٣٦٣هـ وعندما عينه المعز لدين الله ، ثم خلفه سنة ٣٧٤هـ أخوه محمد بن النعمان ثم ولى القضاء الحسين بن على بن النعمان أيام الحاكم بأمر الله كما ولى أبو القاسم عبدالعزيز بن محمد بن النعمان الذى قتله الحاكم بأمر الله أيضاً سنة ٤٠١هـ. وتولى أبو القاسم أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز بن النعمان فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ، ثم صرف أيام المستنصر بالله سنة ٤٤١هـ، وتوارثت القضاء بمصر أسر أخرى كأسرة الفارقى ، وأسرة اليازورى ، ولم تتقلد القضاء الأسر الشيعية فقط ، فقد توصلت بعض الأسر السنية فى العصر الفاطمى إلى تقلد القضاء بمصر كأسرة العوام .

أما عن راتب القاضى ، فكان يعتبر من الرواتب المرتفعة ، إذ كان يتجاوز الألف دينار ، وربما وصل إلى ألفى دينار فى الشهر ، إذا أضيفت للقاضى مهام أخرى بجانب القضاء ، كتوليته

المظالم أو بيت المال . هذا إلى جانب أن القاضى كانت له جراية عينية من الطعام والأعلاف لدوابه . وقد يُمنح إلى جانب ذلك إقطاعاً عبارة عن ضيعة أو عقار يُدرّ عليه دخلاً إضافياً . وكانت فلسفة الخلافة الفاطمية ترمى إلى إشباع القضاة حتى لا يلجأ القاضى إلى الرشوة والفساد والظلم .

كان القضاة يتلقبون بألقاب تختلف من قاضٍ إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن، فقد تلقب القاضى محمد بن النعمان سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م بلقب أستاذ الدعوة بالقصر ، بينما تقلب القاضى أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م بقاضى القضاة وداعى الدعاة وثقة الدولة وأمير الأمراء وشرف الحكام .

وفى أول حكم الفاطميين لمصر أبقوا على أبى الطاهر الذهلى القاضى السنى الذى وجدوه معيناً من قبل الخليفة العباسى رغبة منهم فى تحاشى إغضاب اشعب المصرى السنى ولكن أشركوا معه فى الحكم النعمان بن حيون وابن أبى ثوبان وكانا قاضيان فاطميان من كبار المتفقهين فى المذهب الإسماعيلى ولما مات النعمان بن حيون وابن أبى ثوبان أشرك المعز مع أبى الطاهر علياً الابن الأكبر للنعمان ، ولكن الخليفة العزيز تخلص من أبى الطاهر وقلد القضاء كله لعلى بن النعمان فى صفر ٣٦٦ هـ وبعد وفاته قلد أخاه محمد بن النعمان فى ٣٧٤هـ وخوطب كلاهما بقاضى القضاة .

وفيما يخص تقاليد القضاء الفاطمى ، فإنه يمكن القـول أن القضاء فى العصر الفاطمى تمتع بتقاليد رفيعة ، تتمثل فى جلوس القاضى للحكم فى مهابة فلا يقوم من مجلسه لأحد كائناً من كان، يتساوى أمامه الخصوم ، مهما كانت منزلتهم ، لا يحابى القاضى أحداً ، حتى لو كان الخليفة نفسه ، الذى كان يمثل أمامـه فـى الجلسات العلنية ، إذا استدعى الأمر ذلك .

وكانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمر بن العـاص، وجامع بن طولون، والجامع الأزهر ، وأحيان فى دار القاضـى، كما أن القاضى يجلس للقضاء فى داره أو فى المسجد الجـامع ، يومان فى الأسبوع : السبت والثلاثاء ، ويجلس الشهود عن يمينه ويساره حسب منزلتهم ؛ وعلى بابه يقف خمسة من الحجـاب ، لتنظيم دخول الناس عليه ؛ وتوضع أمامه الدواة المحُلاة بالفضة المجلوبة له خصيصاً من خزائن القصر وكانت الـشكاوى تقـدم على رقاع يكتب عليها اسم المدعى واسم أبيه وتسلم إلى كاتـب القاضى قبل انعقاد الجلسة .

وكان مما يساعد القاضى على تنفيـذ مهامـه أن ولايتـه للقضاء كانت تتحدد بشكل دقيق، فبعضهم كانت له ولاية عامـة مُطلقة ، تشمل الفصل فى كافة المنازعات ، وبعضهم كانت لـه ولاية خاصة كالفصل فى المنازعات فى مدينة مـن المـدن ، أو الفصل فى المنازعات بين الجند.

أما عن معاونوا القاضى ومساعدوه ، فكان منهم كاتب القاضى ، والفقهاء ، والتراجمة، والحجاب ، والشهود .

وكان القاضى يقوم ببعض المهام الأخرى غير القضا مثل شهود المواكب والمواسم والاحتفالات الرسمية والأعياد وتوزيع الأضاحى على مستحقيها ؛ وقد يخراج للسفارة عن الخليفة . كما كان القاضى يقرأ سجل ولاية العهد وسجل الوزراء أو الوساطة ، وقد يشرف على دار الضرب لأهميتها فى ضبط النواحى الاقتصادية وقد يقوم القاضى بمهمة حمل رسالة من الخليفة إلى أحد الملوك ، من ذلك ما قام به القاضى أبوعبدالله القضاعى حيث حمل رسالة من الخليفة المستنصر بالله إلى القسطنطينية.

وقد يجمع القاضى بين القضاء وبعض المناصب الأخرى كالوزارة ، والنظر فى المظالم ، وإمامة الصلاة والخطابة ، والنظر فى الحسبة والأحباس ، والرقابة والتصرف فى أموال اليتامى .

رغم الاحتياطات الكبيرة التى اتخذتها الدولة الفاطمية لضمان نزاهة القضاء؛ إلا أن ذلك لم يمنع من وجود بعض الفساد بين بعض القضاة ؛ إلا أن الخلافة كانت تعاقبهم بشدة وعنف فتصادرهم بل كانت تقتل بعضهم . وقد اهتم الحاكم بأمر الله بتنظيم القضاء على أسس ثابتة ، واعتبر نفسه مسئولاً عن توطيده ، ولكى يسود العدل دولته ، تعمد اختيار قضاته من بين كبار المتفقهين فى الدين والمذهب الإسماعيلى ، ومنحهم السلطة والمال

الوفير حتى لا يطمعوا فى أموال الناس أو يلحقوا بهم أى ظلـم وبالرغم من ذلك فقد وجد الحاكم قضاته يظلمون ويقبلون الرشوة فكان لا يتردد فى الفتك بهم ومصادرة أموالهم ، فحينمـا تـولى الحاكم الخلافة كان فى القضاء محمد بن النعمان منذ أيام العزيز فسمع الحاكم بأن محمد ابن النعمان وجد عليه من أموال اليتامى وغيرهم ستة وثلاثين ألف دينار فأمر بالاحتياط على أمواله وبيع كل ما تركه ، وتغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيـديهم ، وبعدها أمر الحاكم بألا يودع عند أحد الشهود مال يتيم ولا غائب ، وأفرد موضعاً يودع فيه المال ، ويختم عليه أربعة من الشهود ولا يفتح إلا بحضورهم جميعاً .

ولما ولى حسين بن على بن النعمان ، وهو أول من كتب فى سجله قاضى القضاة وقد شرط عليه الحـاكم ألا يتعـرض لأموال الرعية وأن يحفظ مال اليتيم وأن يتخير أعوانه من الشهود أو غيرهم ، ولكى يمنعه من الرشوة ضاعف إقطاعـه وصـلاته ومنحه من مظاهر التكريم الشئ الكثير ، ولكـن الحـسين بـن النعمان سرق أموالاً أودعت فى ديوانه ، كما تسبب فى موت أحد الرعية لسبب تافه ، فعاقبه الحاكم بأن حرمه من بعض مناصـبه ثم حبسه وبعدها ضرب عنقـه وأحرقـه بالنـار ، وذلـك فـى سنة ٣٩٥هـ ولكى يقضى الحاكم على مثل هذا الفساد ويمنعـه ، أقام فى كل إقليم شاهدين من العدول وأمر بألا يقام العقاب (الحد) على كل ذى جريرة ومرتكب إلا بعـد أن يـصح عنـد هـذين

الشاهدين أنه مستحق لها ، فيقام عليه الحد اللازم، ويطلق سبيله .

وقد سعى الحاكم إلى تعيين قاضى من أسرة غير أسرة النعمان ، عرف أفرادها بالتفقه فى المذهب الإسماعيلى فولى مالك بن سعيد الفارقى الذى منح سلطات واسعة وأقطعه داراً كبيرة وجعل إقطاعاته فى السنة حوالى خمسة عشرة ألف دينار ، ولكن انتهى أمره بقتله فى ٤٠٥ هـ بعد إشاعات انتشرت عنه ولم يستطع الدفاع عن نفسه وإبطالها ، وبقيت مصر ثلاثة أشهر بدون قاضى وأخيراً وقع اختيار الحاكم على مصرى اسمه أحمد بن أبى العوام، عرف بأنه ثقة مأمون عارف بالقضاء وبأهل البلاد ، ولما كان ابن أبى العوام سنياً فإن الحاكم شرط عليه أن يكون أساس حكمه كتاب الله وسنة نبيه ، كما أقام معه أربعة من الفقهاء الشيعة لئلا يحكم بغير المذهب الشيعى ، فنظم ابن العوام القضاء ، وحدد له أياماً معلومة ، فكان يعقد مجالسه أربعة أيام فى الأسبوع ، كذلك نقل ابن أبى العوام أرشيف القضاء إلى الجامع وهو ما كان يسمى سجلات الحكم أو دواوين الحكم بعد أن كان يوضع عادة عند القاضى فى داره ثم ينقل إذا مات أو عزل إلى دار الذى يلى بعده، وكان ابن أبى العوام يتصفح حال شهوده فأسقط منهم فى يوم واحد أربعمائة ، وقد استمر ابن أبى العوام يلى القضاء حتى نهاية عصر الحاكم .

ومما ينسب للحاكم أيضاً أنه كان لا يراقب نزاهة قاضى قضاته فحسب بل كان يراقب أيضاً القضاة العاديين ، فيحضر

مجالسهم ويناقش تصرفاتهم إيماناً منه بمسئولياته نحو رعاياه.

ولما كان قيام الدولة الفاطمية يرتكز على نشر مذهبها والدعاية له فقد ألزم القاضى على إصدار أحكامه وفقاً لأصول المذهب الشيعى الذى ساد فى ظل الفاطميين ، وفى سنة ٥٦٦هـ/ عزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعة وولى مذهب قاضى القضاة فيها صدر الدين عبدالملك بن درباس الشافعى ، فاستناب فى سائر المعاملات قضاة شافعية وبذلك عاد القضاء فى مصر إلى السنة .

٤- النظام المالى

أولاً : الموارد المالية

اهتمت الحكومة الفاطمية بتنظيم مواردها المالية ولم تختلف الموارد المالية فى العصر الفاطمى عنها فى العهدين الطولونى والإخشيدى وعهد الولاة كثيراً وقد تعددت فى العصر الفاطمى وكان من أهمها :

الخراج :

ويأتى على قائمة الموارد المالية للدولة الفاطمية ، وهى الضريبة التى كانت تحصل عليها الدولة من الأراضى المزروعة حبوباً وعنباً وفاكهة وكان يدفع نقداً أو عيناً .

وكان نظام جباية الخراج يتم عن طريق نظام الالتزام أو التقبيل فكان متولى الخراج فى مصر يجلس فى الوقت المخصص لتقبيل الأرض ويجتمع الناس من القرى والمدن ويتم النداء عن الأراضى الموضوعة للقبالة ليتزايد الناس عليها فإذا رست القبالة على رجل يعمد الكتبة إلى تسجيل اسمه والأرض التى قبلها ومقدار القبالة وذلك لمدة أربعة سنوات ، حيث يقوم بزراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه أو من ينتدبه لذلك ويسدد قيمة الخراج فى أوقاته بعد خصم ما أنفقه على عمارة جسورها وحفر ترعها وخلجانها .

وكان الخلفاء يتشددون فى طلب الخراج وخاصة عندما تتأخر بعض المبالغ ولا يستطيع الملتزم أن يفى بالتزامه أمام

الدولة وغالباً ما كان يحدث هذا بسبب وقوع الكوارث الطبيعية التى كانت تصيب البلاد بسبب ارتفاع النيل أو انخفاضه عن المعدل الطبيعى ، ورغم هذا كانت الحكومة تتشدد فى طلب المتأخرات التى كانت يطلق عليها البواقى ، وأحياناً كانت الحكومة تتسامح فى طلب تلك البواقى وخاصة فى العصر الفاطمى الثانى ويظهر هذا فى المنشور الذى أصدره الوزير المأمون البطائحى بخصوص قبالة الأرض والتسامح فى البواقى وذلك أوخر سنة ٥١٥ هـ ، فقد أصدر المأمون وزير الخليفة الآمر بأحكام الله عدة مراسيم لتنظيم شئون الجباية والخراج وكانت هذه المراسيم فى مصلحة الضامن، لأن العادة المتبعة كانت تسمح بفسخ الضمان الأول إذا تقدم أى إنسان آخر وزاد على قيمة ضمانه ولو بعد حين، فيعطى الضمان للثانى الذى زاد عليه فألغى الآمر هذه الطريقة لأنها وإن ألحقت بالضامن ضرراً مباشراً فإنها انعكست ضرراً غير مباشر على الرعايا لما يصيبهم من الزيادة التى يحصلها الضامن الثانى أضعافاً مضاعفة.

وجاء بعضها فى مصلحة أصحاب الأراضى ، إذ تبين أن عدداً كبيراً من الناس لم يسدد ما توجب عليه من الخراج عن أراضيهم لعدد من السنين ، وعندما تقرر مطالبتهم بما عليهم وصدر حكم القاضى بذلك ، التمسوا من الوزير المأمون البطائحى إعفاءهم ، لا سيما أن قيمة هذا الخراج تزيد عن ثمن الأرض التى يستثمرونها فأعفاهم وأصدر بذلك مرسوماً.

كما فعل سنة ٥١٥ هـ سامح بموجبه أهل الخراج ، من العاملين والضمناء والمتصرفين عن بواقى الخراج إلى سنة ٥١٠ هـ وذلك للفرق الحاصل بين السنة الهلالية والخراجية .

وقد اختلف تقدير الخراج فى العصر الفاطمى من منطقة لأخرى وذلك حسب جودة الأراضى واختلاف أنواع الزرع وحسب الرى وقيل أن خراج الوجه القبلى كان أقل من خراج الوجه البحرى وذلك راجع لاختلاف طبيعة الخراج فالوجه القبلى يدفع خراجه عيناً ، ولكن الوجه البحرى يدفعه نقداً، كذلك اختلف الخراج باختلاف المحاصيل الزراعية .

ولم تكن إيرادات الدولة من الخراج ثابتة بل كانت متقلبة وترتبط إلى حد كبير بأحوال البلاد الأمنية وباستقرار أحوال النيل وقد تأثرت أيضاً بالصراع على السلطة بين الوزراء ورجال الدولة وخاصة فى العصر الفاطمى الثانى المعروف بعصر الوزارء العظام بسبب ضعف الخلفاء وعدم سيطرتهم على شئون البلاد ، فهذه الأسباب كانت تؤثر على جباية الخراج فأحياناً كان الخراج يأتى مرتفعاً وذلك بسبب استقرار الأحوال الأمنية ، فقد قيل أنه بعد سنة ٤٨٧ هـ وبعد قدوم بدر الجمالى وتحسين أحوال البلاد المالية زاد خراج مصر فأصبح ٣ ملايين ، ١٠٠ ألف دينار ، وفى زمن الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش بلغ الخراج خمسة ملايين دينار ، وقد يرتفع الخراج بسبب تشدد الخليفة ووزيره فى طلب البواقى مثلما حدث أيام

يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن فى بداية العهد الفاطمى . ولذا كانت هذه الفترة أكثر الفترات جباية للخراج ، أو مثلما قامت حكومة الخليفة المعز لدين الله بإلغاء الدينار الذهبى وجمعه من الأهالى بثلاثة أرباع القيمة مما زاد من دخل الدولة ومن العوامل التى كانت تساعد فى زيادة الخراج الاهتمام بإصلاح الجسور وشق الترع وحفر القنوات وغيرها من الشئون الزراعية التى تساعد الفلاح على إنتاج حاصلات زراعية على درجة عالية من الجودة والوفرة فيزيد مقدار الخراج .

الجزية:

وتسمى ضريبة الرؤوس وكان يدفعها أهل الذمة من النصارى واليهود ، وكانت مفروضة على الذكور البالغين ويعفى منها الأطفال والنساء والشيوخ وكانت تجبى مرة واحدة فى السنة ويراعى فيها القدرة المالية وجعلت جباية الجزية من اختصاص ديوان الجوالى الذى كان يرأسه أحد العدول الكبار يعاونه عدد من الموظفين لتنظيم جباية الجزية من الذميين وشطب اسم من يموت أو يسلم وكانت الجزية تمثل جزءاً مهما من إيرادات الدولة .

المكوس:

وهى من الضرائب الهامة فى العصر الفاطمى وتدل على الضريبة التى تجبى على السلع الواردة والصادرة الموجودة بالثغور ويصف المؤرخون هذه الضرائب بأنها كانت ثقيلة وبخاصة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل بالفسطاط وكانت أهم

الثغور فى ذلك العصر الإسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد ويطلق على مكوس الثغور (الخمس) وهى عبارة عما يؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغور المختلفة بمقتضى ما صولحوا عليه وكانت الوسائل الأمنية تتخذ فى جميع الأحوال حيث يتم تفتيش المراكب بصورة دقيقة وخاصة المراكب القادمة من البلاد التى لا تنتمى للعالم الإسلامى .

وكانت تلك المكوس تجبى مرة واحدة من كل قادم بالتجارة فى كل سنة حتى لو رجع إلى بلاده ثم عاد بالتجارة فى سنته لا يؤخذ منه شئ وغالباً ما كان التجار يحصلون على تصاريح تعفيهم من دفع تلك الرسوم مرة ثانية أثناء العام الواحد .

وكانت المكوس تسد جانباً من نفقات الدولة المالية بما كان يرد عن طريقها من أموال تفرض على البضائع الداخلة إلى البلاد عن طريق التجار الروم . وما كان يفرض على الصناعة والتجارة المحلية . وقد ذكر أن الدولة الفاطمية كانت تفرض مكوساً كثيرة وقد زادت نسبة المكوس فى العصر الأول لقوة الخلفاء وانخفضت فى العصر الثانى لضعف سلطة الخلفاء والنزاع بين الوزراء والقواد .

وقد قيل أن الحاكم بأمر الله قام بالغاء المكوس عن جميع الغلال الواردة إلى السواحل والأسواق سنة ٤٠٣ هـ ثم أعادها من جديد سنة ٤٠٤ هـ مبقيا على إلغاء مكس الرطب ودار الصابون وكان قيمة ما كان يؤخذ عنها ستة عشر ألف دينار.

وكانت إدارة المكوس ترجع إلى" الديوان الهلالى " الذى كان يرأسه موظف كبير يعاونه عدد من الموظفين تشمل صلاحياتهم تنظيم جباية المكوس وإعداد اللوائح الخاص بها .

المواريث الحشرية:

وهى من أهم موارد بيت المال وهى مال من يموت وليس له وارث شرعى، أو الباقى من مال من يموت بعد توزيع التركة ، وكانت هذه الأموال تؤول إلى بيت المال فإذا كانت تلك الأموال فى صورة عقارات أو أراضى زراعية تقوم الحكومة باستثمارها عن طريق التأجير. وكانت هذه المواريث الحشرية من المصادر الهامة لدخل بيت المال وخاصة فى فترات انتشار الأوبئة التى كانت تنتج عن الأزمات الاقتصادية بسبب كثرة أعداد الموتى فى تلك الفترة وانتقال أكثر ثرواتهم وأموالهم إلى بيت المال وتعد الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر خير دليل على ذلك فقد تزايدت الأموال التى آلت لبيت المال فى الفترة من سنة ٤٥٧ إلى سنة ٤٦٤هـ.

وكان عصر الوزير الأفضل بدر الجمالى من أزهى العصور بالنسبة للمحافظة على المواريث فقد قيل أنه أول من أفرد المواريث ومنع من أخذ شئ من التركات على العادة القديمة وأمر بحفظها لأربابها فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحال .

وقد اتخذ الفاطميون للمواريث ديواناً عرف بديوان المواريث الحشرية لا يتولاه إلا شاهد عدل يساعد جماعة من الكتاب يقومون بمتابعة تلك الأموال كما خصص فى هذا الديوان كاتب لتدوين أسماء من يموتون كل يوم وتبليغ الديوان بهذه الأسماء وكانت التقارير تستمر طوال اليوم لا تختتم إلا عند صلاة العصر ومن يموت بعد العصر يضاف اسمه على لوائح اليوم التالى .

المصادرات :

وكانت تعتبر مورداً رئيسياً من موارد الدولة المالية فكانت الحكومة الفاطمية تصادر أموال المغضوب عليهم من رجال الدولة ومن المحكوم عليه بالإعدام ، وتودع هذه الأموال فى ديوان المفرد ويتصل هذا الديوان اتصالاً مباشراً بديوان المواريث الحشرية . وقد بدأت أعمال المصادرات من بداية العهد الفاطمى ، واستمرت فقيل أن العزيز بالله صادر لوزيره يعقوب بن كلس خمسمائة ألف دينار .

وقد عرفت مصر نظام المصادرات قبل العصر الفاطمى وزادت فى العهد الإخشيدى، أما فى عهد الدولة الفاطمية فقد امتلأت خزانة ديوان المفرد بالأموال المصادرة خاصة زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الذى صادر أموال كثير من رجال دولته المشكوك فى أمرهم من موظفى الحكومة ومن المغضوب عليهم لسبب أو لآخر .

ولم يكتف الخليفة الحاكم بمصادرة أموال رجال دولته ،ولكن مصادراته امتدت لتشتمل الأملاك العقارية لوالدته وأخته وزوجته وعماته وخواصه من النساء، وقد بدأ أيضاً أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر بالله عهده فى الحكم بالمصادرات إذ أجاز لجنده قتل أمراء عسكر الأتراك واستيلاء كل منهم على مال كل أمير مقتول وداره وإقطاعه . وقد تعددت المصادرات طوال العهد الفاطمى وكان بعضها يرجع إلى تناقص إيرادات الدولة نتيجة للاضطرابات المالية وكذلك كانت فى بعض الأحيان كنوع من معاقبة كبار موظفى الدولة على استغلالهم للشعب أو للحد من سيطرتهم .

المستغلات:

وهى عبارة عن المواد والسلع التى كانت تستغل لحساب الدولة الفاطمية مثل معدن الشب وكان الديوان يحتكره فلا يباع إلا عن طريقه فهو المتصرف الوحيد فى بيعه وشرائه وكان معدن الشب يستخرج من صعيد مصر وكان مقدار ما يستخرج منه اثنى عشر ألف قنطار سنوياً . ومن المعادن أيضاً النطرون وهو من المعادن التى احتكرتها الحكومة الفاطمية وكان الذى بدأ ذلك أحمد بن المدبر عامل الخراج على مصر الذى قيل أنه أحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحاً لجميع الناس .

واحتكر الفاطميون أيضاً بيع محصول القرظ (ثمرة شجرة السنط) ويعتبر من المستغلات أيضاً الحوانيت

والدور والقياسر الحمامات وهناك تجارة القمح التى كانت تخزن فى المخازن لأوقات الشدة ثم استبدلت هذه التجارة بتجارة الخشب والصابون والحديد والرصاص .

دار الضـــرب:

وكان من جملة موارد بيت المال الإيرادات التـى كانـت الحكومة تحصلها من دار الضرب على كل ما يسبك فيهـا ومـا يحمل إليها من الذهب والفضة والمعـادن النفيـسة وكانـت دار الضرب بالإسكندرية من أهم دور الضرب فى مصر قبل الفـتح الإسلامى ، وأصبحت دار الضرب الإسكندرية تسك بها النقـود على أنواعها المختلفة منذ أوائل العصر الأمـوى واسـتمر بهـا الضرابون والنقاشون وغيرهم من الصناع فى عصر الولاة ثـم أنشئت دار أخرى للضرب فى الفسطاط فى عهد الأمويين .

وكان متولى دار الضرب له الإشراف المباشر على العمال والصناع بها وقد نشطت حركة سك الدنانير والعملات اوائل

لأخرى بعد أن حملت السياسة الفاطمية الناس على التعامل بالدنانير الفاطمية والعمل على الإكثار من ضربها حتـى تغمـر الأسواق كما عمل الفاطميون على ضرب عملات جديـدة مـن الذهب هى "ربع الدينار" وأصدروا منها الكميات الضخمة .

وكان لدار الضرب أهمية كبرى لما تعود به على الدولـة من إيرادات بفضل ما يسبك فيها من الذهب الذى يحمـل إليهـا حيث يصهر ويصب فى قوالب تقطع من أطرافها بمباشرة المدير

المسئول فتصير سبيكة ، ثم تضرب نقوداً مختلفة الأحجام والأوزان وكان أكثر ما يعمل بها دنانير الغرّة التى كان يوزعها الخليفة فى أول العام الجديد من كل سنة ، وما يضرب من دنانير بمناسبة خميس العدس ، ولصاحب دار الضرب الحق فى مراقبة الموازين والمكاييل التى يحملها أصحابها إلى هذه الدار للكشف عليها فإن وجد فيها عيباً أو نقصاً أو تلفاً أجبر أصحابها على استبدالها وشراء غيرها أو إصلاحها ونظراً لأهمية دار الضرب كان يتولى مهمة الإشراف عليها قاضى القضاة ويساعده عدد من العدول .

وقد نشطت حركة سك النقود فى الدولة الفاطمية وذلك يرجع لسياسة الخلفاء الفاطميين الخاصة بنقش أسمائهم وصورهم على الدنانير والنقود الأخرى طوال عهدهم ففى سنة ٤٩٧ هـ ضرب الخليفة الآمر بمصر نوعاً من المسكوكات الفضية المشهورة بالآمرية ولم يقتصر اهتمامه على سك النقود التى حملت اسمه بل تم تأسيس دارين للضرب فى عهده وأظهر مدى حرصه على عيار الذهب بهما وبدور الضرب الأخرى فقد ذكرت المصادر أنه فى سنة ٥١٦ هـ أمر الوزير المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة وأن يكون دينارها أعلى عياراً من جميع ما يضرب فى سائر الأمصار وقد أطلق عليها الدار الآمرية كما تشير المصادر إلى أن الخليفة الآمر أمر ببناء دار لسك النقود الذهبية بمدينة قوص وذلك فى سنة ٥٢٤ هـ وهكذا تعددت دور

الضرب فى أواخر أيام الفاطميين فأصبحت فى كل من الإسكندرية والفسطاط والقاهرة وتنيس وقوص فى مصر ، كما كانت فى كل من صور وعسقلان ودمشق من بلاد الشام.

ضريبة البراطيل :

وهى عبارة عن ضريبة كانت تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها أى موظفى الدولة وقد عرفتها مصر قبل دخول الفاطميين إليها حيث قيل أن جوهراً عندما استقر بمصر أمر برفع البراطيل أى أنه ألغى هذه الضريبة ، ثم أعادها الوزير الصالح طلائع بن رزيك فى ولاية النواحى فقط ، وكانت تؤدى مرتين فى السنة .

ومن الموارد المالية أيضاً الأحكار وهى الأجور المقررة على الساحات الكثيرة التى كانت منتشرة فى مصر وهذه الأراضى الفضاء أقيم عليها بمرور الوقت بعض المنشآت التجارية أو المساكن أو الحدائق والبساتين فتركتها الحكومة فى أيدى مستغليها مقابل دفع أجرة مقررة إلى بيت المال فى مقابل استغلالها وكانت هذه الأحكار تمثل أحد الموارد التى تمد خزانة الدولة بدخل لا بأس به .

كذلك كانت الحكومة الفاطمية تحصل مبالغ طائلة على الإنتاج الحيوانى بأنواعه المختلفة وقد حصلت أيضاً على الضرائب من مصايد الأسماك وهى ضريبة كانت معروفة فى

مصر منذ عصر الولاة وقد ابتدعها أحمد بن المدبر وسماها المصائد ثم ألغاها أحمد بن طولون بعد استقراره بمصر ويتضح من بعض المصادر أن الدولة الفاطمية أعادتها وحصلت من ورائها على أموال طائلة .

المصروفات :

ويقصد بها وجوه إنفاق الأموال التى حصلت عليها الدولة من الموراد السابقة ومن هذه المصروفات مرتبات القضاة والموظفين والمحتسبين وغيرهم ومن وجوه الإنفاق البارزة تلك النفقات الضخمة التى كانت تنفق على الجيش فقد كان الجيش الفاطمى يتألف من طوائف وفرق مختلفة وقد جرت العادة فى العصر الفاطمى أن يخصص جزء من خراج البلاد للإنفاق على الجيش وقد حرص كثير من خلفاء الدولة الفاطمية على توصيل مرتبات الجند فى مواعيدها المحددة خوفاً من ثوراتهم .

ومن النفقات أيضاً نفقات الأسطول الفاطمى وكان يتم دفع رواتب جند الأسطول طبقاً لرسوم معينة حيث يجلس الخليفة ومعه الوزير ويحضر ديوان الجيش ويجلس عند عتبة المجلس وإلى جانبه كاتب الجيش ويفرش الحصر وتوضع الدراهم أمامهم ويتم وزنها بواسطة وزانين من بيت المال ويتم إدخال البحارة مائة مائة حسب نوعياتهم ويقفون بين يدى الخليفة ويقرأ كاتب الجيش الأسماء المدونة فى الكشوف السابق إعدادها فى ديوان الجند ويتم وزن الرواتب لكل عشرة بحارة على حدة ويعطى كل

منهم خمسة دنانير وبعد إتمام التوزيع يتم إعطاء الأوامر بإعداد السفن وتجهيزها للسفر .

ومن وجوه الإنفاق أيضاً نفقات المواسم والمواكب والأعياد فقد كانت النفقات التى تنفق على المواكب فى موسم فتح الخليج عظيمة الشأن وكانت الدولة فى مثل هذا الموسم تنفق الهبات على الشعراء والفقهاء والأدباء ومن وجوه الإنفاق ما كان ينفق على إعداد سماط شهر رمضان وسماط عيد الفطر والنحر بالإضافة إلى الكسوة الموزعة على رجال الدولة والأقارب ، كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بخميس العهد بضرب خمسمائة دينار من الذهب وتحويلها إلى عشرة آلاف (خروبة) وهى عملة صغيرة الحجم لتوزيعها على جميع رجال الدولة فى هذا اليوم.

ومن المصروفات أيضاً الإنفاق على الاحتفال بيوم غدير خم وقد بلغ أموالاً طائلة سواء ما كان ينفق لإعداد الكسوة التى تعد من أجل توزيعها على رجال الدولة أو المبالغ المالية التى تقدم كهبات وهدايا وعطايا ، فكان القاضى يحصل قبل إلقاء الخطبة على بذلة مميزة يلبسها وخمسين ديناراً. إلى جانب إنفاق الخلفاء مبالغ طائلة من أجل توزيعها على الفقراء فى ذلك اليوم وكان ما يوزع على الوزير ورجال الدولة يصل إلى مبالغ كبيرة وتبلغ الأسمطة فى هذا اليوم مبلغ الأسمطة فى عيد الأضحى من حيث النفقة ، بل كانت الذبائح التى تنحر فى هذا اليوم تفوق مثيلاتها فى عيد النحر إلى جانب المبالغ التى تنفق على الفقراء

والمساكين من أهل البلاد إلى جانب العطايا والهبات التى يحصل عليها الشعراء وقراء القرآن الكريم .

ومن النفقات أيضاً نفقات عيد النيروز ومن أوجه المصروفات كذلك الإنفاق على المنشآت وهو من البنود الهامة فى الميزانية الفاطمية فقد خصصت للعمائر مبالغ طائلة وتشمل صيانة الجسور والإنفاق على تطهير الترع وأعمال الرى وإقامة المشروعات الهامة مثل إعادة حفر خليج الإسكندرية زمن الحاكم بأمر الله وقد أنفق على هذه المشروع الضخم ١٥,٠٠٠ دينار ، وكذلك أنفق مبالغ طائلة على إتمام حفر خليج أبى النجا زمن الوزير الأفضل بدر الجمالى .

ويمكن القول أن الخلفاء الفاطميين لم يبخلوا بالأموال الخاصة بمشروعات الرى والصرف وحفر الترع والقنوات وحفر الخلجان وغير ذلك من الأعمال التى أدت إلى ازدهار النشاط الزراعى بالبلاد.

ومن أوجه المصروفات أيضاً بناء القصور والجوامع والمكتبات وقد بلغت أموالاً طائلة فقيل أن بناء القصر الغربى تكلف مليونى دينار ، وأن نفقة بناء جامع الحاكم بأمر الله بلغت ٤٠,٠٠٠ دينار ، وأن نفقة جامع الأقمر الذى تم بناؤه فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله بلغت مائتى ألف دينار .

ومن النفقات أيضاً ما كان ينفقه الخلفاء على الشعراء ورجاء الدولة من هبات ومنح إلى جانب الأموال التى كانت تنفق

على دار الضيافة التى أقامتها الحكومة من أجل الإشراف على الاستقبالات الرسمية . كما كانت الحكومة تنفق مبالغ طائلة من أجل الحفاظ على سلامة الطرق وتأمين البريد والثغور .

ومن أوجه المصروفات أيضاً ما كان ينفق سنوياً على مواسم الحج وكانت مبالغ كثيرة لحماية الحجاج وأثمان طيب وشمع وكسوة الكعبة وتأمين مياه الشرب وخلافة ، ومن المصروفات أيضاً ما ينفق على المساجد والمكتبات التى حرص الفاطميون على إنشائها وتزويدها بمختلف أنواع الكتب الدينية والأدبية والفلسفية والعلمية والتاريخية وإعدادها وفرشها.

ومن المصروفات أيضاً نفقات الخزائن الفاطمية مثل خزانة الكسوة وخزانة الفرش والأمتعة وخزانة الكتب وغير ذلك .

كانت الدولة الفاطمية تقوم بدفع نفقات جميع وجوه الإنفاق من بيت المال الذى يتولى العمل فيه موظف كبير من الشيوخ العدول الثقات يطلق عليه اسم "صاحب بيت المال" وأحياناً متولى بيت المال يفوض إليه الخليفة أمر شراء الأشياء وبيع ما يرى بيعه وإنشاء ما تحتاج إليه الدولة من المبانى والسفن وغير ذلك . وكان لصاحب بيت المال اختصاصات أخرى مثل إعداد الجامع أيام ركوب الخليفة فى يومى عيد الفطر والأضحى وقد يتسلم الوزارة فالحسين بن طاهر الوزن قبل أن يخلع عليه الخليفة الحاكم بأمر الله بالواسطة ، كان يتولى بيت المال ، وكذلك ابن دواس كان صاحب بيت المال ثم تولى الوزارة .

وأنشأ الفاطميون ديوان المجلس للإشراف على دواوين الدولة المالية ، من تنظيم الجباية وسائر الإيرادات إلى آخر النفقات وتعد الدواوين الفاطمية بيانات بإيراداتها وتقدمه إلى هذا الديوان فيقوم صاحب ديوان المجلس "بإعداد البيان الشامل بإيرادات الدولة ويقدمه إلى الوزير أو الخليفة ليشطب منه أو يزيد عليه ما يراه مناسباً كما يقوم صاحب ديوان المجلس بتدوين النفقات فى عيدى الفطر والأضحى وغير ذلك من المواسم من أجل ضبط حساب ما ينفقه فى ضوء ما يرد لمعرفة الفائض فى السنة المقبلة .

٥- الأحوال الاقتصادية

الــزراعــة:

اشتهرت مصر منذ قديم الزمان بالزراعة وقد جاء العرب إلى مصر وهم يعلمون بثرواتها وخيراتها الزراعية، ووجدوا بها بعد الفتح الإسلامى خيرات وفيرة، وكانت الزراعة فى مصر تقوم أساساً على ماء النيل، واهتم العرب بعد الفتح الإسلامى بنظام الرى فأقاموا السدود وحفروا الترع والخلجان، كذلك اهتموا ببناء مقاييس للنيل لمعرفة الزيادة والنقصان فى مياهه، ليكون ذلك معياراً صادقاً للزراعة والرى والضرائب فى كل عام. فبنى عمرو بن العاص مقاييس بحلوان وأسوان ودندرة، وبنى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر مقياساً بحلوان.

كما بنى الخليفة المتوكل كذلك مقياسا بجزيرة الروضة سنة ٢٤٧هـ، كان يعرف آنذاك بالمقياس الجديد، وكانت الأراضى بمصر تقاس بالفدادين وكان إيجار الأرض يدفع نقداً وعيناً – كما اهتم الطولونيون والأخشيديون بالزراعة خاصة القمح والكتان والفول. واهتم ابن طولون بتطهير الترع وبناء الجسور وحماية الفلاحين.

اهتم الفاطميون بالزراعة باعتبارها من أهم مصادر الثروة فى مصر، وكانت زراعة القمح من الزراعات الهامة وتشغل الجزء الأكبر من الأراضى المصرية الخصبة التربة، خاصة أنحاء الدلتا والوجه القبلى لأنه الغذاء الرئيسى لأهل البلاد، ولم

تكن الذرة معروفة فى مصر فى ذلك الوقت. وكان القطن من المحاصيل الصيفية الموجودة بمصر منذ عصر الولاه إلا أن مساحته كانت محدودة حيث اعتماده على الرى الدائم وقيل كان يزرع بمنطقة الفيوم حيث وفرة المياة طوال العام – ومن الحاصلات الصيفية أيضاً التى عرفتها مصر منذ القدم الأرز وكان من الحاصلات الغذائية الهامة التى اعتمد عليها الفلاح وتأثرت أسعارها فى أيام الأزمات الاقتصادية وتمركزت زراعته أيضاً بمنطقة الفيوم لوفرة المياة وكان يزرع أيضاً فى منطقة الواحات لوجود الآبار الصالحة للرى طوال العام ومن المحاصيل المصرية أيضاً العدس وأهتم الفلاح المصرى بزراعته باعتباره غذاءاً رئيسياً للطبقات الشعبية إلى جانب استخدامه كغذاء فى بعض المناسبات الدينية حيث كان يستخدم منه كميات وفيرة فى عيد خميس العهد أو خميس العدس.

انتشرت زراعة الكتان فى الدلتا والفيوم لأنه يزرع فى الأراضى المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة، وتوسع المصريون فى العصر الفاطمى فى زراعة القصب، كما اشتهرت مصر بزراعة أنواع مختلفة من الفواكه، ومنها الكروم ويزرع فى نواحى مريوط والجيزة والفيوم وقليوب، وبعض جهات الوجهين القبلى والبحرى، وكان كذلك شجر النخيل من الزراعات التى اهتم بها الفاطميون.

كذلك اهتم الفاطميون بزراعة أشجار الغابات للحصول على الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول والمراكب التجارية. ومن العوامل الطبيعية التى أثرت على الإنتاج الزراعى فى العهد الفاطمى؛ فيضان النيل.

فمن المعروف أن هناك مستوى معين للفيضان يسمح بزراعة ورى الأراضى، وإذا نقص هذا المنسوب فإن ذلك يؤثر على حالة الرى. كما حدث فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى حيث حل بالبلاد الشدة العظمى، أو الشدة المستنصرية وكان سببها نقص فيضان النيل عن المستوى العادى اللازم لرى الأراضى فحلت بالبلاد هذه الشدة، وكان من مظاهرها إهمال الزراعة، وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية، وانتشار الوباء.

واستمرت هذه الشدة سبع سنوات واقترن بهذه الشدة قيام الفتن والحروب الأهلية، فلما ولى بدر الجمال الوزارة سنة ٤٦٦هـ قضى على المفسدين وعمل على إصلاح البلاد واهتم بالترع والجسور حتى تحسن الأحوال الزراعية. وزاد خراج مصر فى أيامه. وقد أنشأت فى العصر الفاطمى إدارة خاصة بالزراعة للإشراف على أمورها. كما قام الفاطميون بمشروعا هامة لتنظيم الرى. فقد اهتم الفاطميون أيضاً بالعناية بمقياس النيل حتى رتبوا عاملاً وظيفته المحافظة عليه وتسجيل الزيادة واهتم الخلفاء كذلك بأمر النداء على وفاء النيل واتبعوا

سنة جديدة فى هذا الشأن فبعد أن كان يقوم المنادى بالنداء على الزيادة يومياً بعد أن يبلغ منسوب المياه عند المقياس حداً معيناً ويعلم العامة بهذه الزيادة. أمر الخليفة المعز لدين الله بأن تحجب هذه الزيادة عن العامة ولا يتم الاعلان عنها إلا بعد أن يصل الماء أمام المقياس إلى ستة عشر ذراعاً . وقد اهتم الفاطميون أيضاً بالمشروعات التى تساعد على المحافظة على مياه النيل وعلى رى الأرض ، ومن هنا اهتموا بشبكة الترع والقنوات والجسور المنتشرة فى أنحاء البلاد والاهتمام بتطهيرها وإقامة القنوات وتشييد الجسور الجديدة وكانت الحكومة تفرض الضرائب على النواحى من أجل عمارة الجسور والمحافظة عليها وكانت الجسور نوعين جسور سلطانية وهى الجسور الرئيسية وجسور بلدية وهى الجسور الفرعية كذلك اهتم الفاطميون بعمارة السدود الموجودة على نهر النيل .

بدأت ظهور الأراضى المقطعة فى مصر الإسلامية بعد الفتح الإسلامى، وفى العهد الفاطمى زادت الإقطاعات، وكان هناك إقطاعات تمنحها الدولة وتتنازل عنها للمقطعين، كما كانت هناك إقطاعات تعطى للأجناد مقابل دفع مبلغ ويعرف هذا النوع باسم إقطاع استغلال.

التجارة:

ازدهرت التجارة فى مصر لانتعاش الزراعة والصناعة إلى جانب ما تميزت به مصر من موقع جغرافى هام، بين قارات

أفريقيا وأوروبا وآسيا، وقد جعل هذا الموقع مصر مهيمنة على أهم الطرق البحرية التجارية فى العالم حينذاك، منها طريق البحر الأحمر – البحر المتوسط الذى كان يتحكم فى طريق التجارة بين الشرق والغرب، لذلك شهدت مصر تجارة زاهرة منذ القدم فقال المؤرخون عن مصر أنها "فرصة الدنيا".

وكانت الفسطاط من أهم المراكز التجارية فى مصر بعد الفتح الإسلامى لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، وقد اهتم العرب بعد الفتح الإسلامى لمصر بالعمل على تنمية وازدهار النشاط التجارى، فقام الخليفة عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة النيلية التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمالى الفسطاط .

وكانت هذه القناة قد أهملت قبل الفتح، وكان الغرض من إعادة حفرها هو تسهيل حمل الغلال والطعام من مصر إلى الحجاز ، وسميت هذه القناة باسم "خليج أمير المؤمنين" وازدهرت التجارة بمصر فى العهد الأخشيدى، فكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب مختلف البحار فى القرن الرابع الهجرى، وكان فى مصر جالية كبيرة من الفرس يحترفون التجارة، كما كان لليهود نشاط ملحوظ فى هذا الميدان.

وكان مركز التجارة الداخلية الأسواق المحلية وكان أغلب هذه الأسواق فى المدن، كالفسطاط والقاهرة، ولم يؤثر إنشاء

القاهرة على مركز الفسطاط التجارى. وكان من مراكز التجارة الداخلية دمياط وقوص وأسوان والأسكندرية التى كانت تعتبر من أهم ثغور مصر الإسلامية مما جعلها سوقا تجارية هامة.

أما الفسطاط فكانت أعظم المراكز التجارية فى العصر الفاطمى وقد لعبت دور الوسيط التجارى للتجارة العالمية وساعدها على ذلك موقعها المتميز على النيل حيث تقع بين نقطة التقاء النيل إلى فرعى رشيد ودمياط مما جعلها على صلة وثيقة بطرق التجارة من أسوان إلى ساحل البحر الأحمر فتخرج منها التجارة البرية التى تسلك طريقها إلى بلاد الشام إلى جانب طرق أخرى تتجه إلى المغرب وقد تعددت الأسواق المشهورة فى الفسطاط فبلغت تسع عشرة سوقاً كلها أسواق متخصصة كل منها فى حرفة معينة مثل سوق الخبازين والقفاصين والوراقين والأساكفة وغيرها من الأسواق الأخرى وتمتعت أسواق الفسطاط بكثرة روادها من جميع الأنحاء حيث كان يرد إليها تجار الشام بمنتجاتهم وتجار المغرب إلى جانب ما تحمله لها مراكب العراق والروم ولم يقتصر دور الفسطاط التجارى على استيراد المواد الغذائية والمنتجات الصناعية بل كان لها دور كبير فى تصدير كثير من منتجاتها الصناعية المتعددة من الصابون والسكر والورق.

ومن الثغور التجارية الهامة تنيس وكانت أهم الثغور الواقعة بين النيل والبحر الأبيض المتوسط واشتهرت بفخامة

أسواقها وقد أدى ازدهار وتقدم الصناعة بهذه المدينة إلـى رواج النشاط التجارى بها فاشتهرت بصناعة النسيج كما كانت تجلـب إليها الحاصلات المختلفة من قرى ومدن مصر واشتهرت أسواقها بتجارة الأسماك والصناعات اليدوية.

أما دمياط: فكانت من الثغور المصرية الهامة وقـد زادت أهميتها فى العصر الفاطمى وكانت تحتل مركزاً مرموقـاً فـى تجارة النسيج العالمية وقد زاد من شهرتها إنشاء دار الصناعة بها وتخصصت فى تجهيز الأساطيل العربيـة وكـذلك التجاريـة – وكانت دمياط عامرة بالأسواق وقد ازدهرت الحركة التجارية بها مما جعل كثير من تجار الشرق والغرب يقيمون بها وكذا كثرت فيهـا الفنـادق والقياصـر وتـدفقت عليهـا رؤوس الأمـوال من كل مكان.

أما الفرما فمن المراكز التجارية الداخلية الهامة أيضاً حيث كانت تستقبل تجارة سورية وسائر أقاليم شرق البحر المتوسط وقد تميزت بأسواقها العامرة على مدار السنة وازدحام تلك الأسـواق بالتجار القادمين إليها من البحر والبحر ليلاً ونهاراً من الفسطاط والشام حيث كانت على طريـق القوافـل التجاريـة وروادهـا كانوا لا ينقطعون.

أما عن مدينة عيذاب :

فهى تقع على شاطئ البحر الأحمر وكانت تعتبر من أهـم المراكز التجارية فى العصر الفاطمى وكانت تفد إليها السفن من

الهند واليمن والحبشة وكانت من الأماكن المحببة للتجار والبحارة فكانوا يفضلون الرسو بها عند قدومهم من عدن وعند رحيلهم إليها.

أما عن مدينة قوص:

فهى أعظم مدائن الصعيد وكانت مدينة تجارية كبرى حافلة بالأسواق كثيرة المرافق وكثيرة الناس لكثرة روادها من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار أرض الحبشة فهى ملتقى تجار تلك البلاد جميعا ومن أهم محطات التجارة وفيها كانت تلتقى قوافل التجار من المغاربة والمصريين وأهل الإسكندرية حيث يركب التجار والحجاج السفن النيلية إلى مدينة قوص ومنها على ظهر الإبل إلى عيذاب ونتيجة لهذه الحركة التجارية الكبرى فقد حفلت تلك المدينة أيضاً بالمرافق الكثيرة لخدمة التجارة الواردين إليها من شتى الأرجاء حيث الفنادق والقياسر وقد اشتهرت تلك المدينة بإنتاجها الوفير من التمور إلى جانب قصب السكر الذى يتجه تصديره إلى مناطق كثيرة داخل البلاد والكروم وغير ذلك.

أما الإسكندرية فقد كانت من أهم المراكز التجارية المصرية وحلقة الاتصال بين طرق التجارة العالمية وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافى المتميز على ساحل البحر المتوسط واتصالها بالنيل عن طريق خليجها ولذلك كانت قبلة كثير من تجار البر والبحر وكانت السلع المختلفة وخاصة البهار والتوابل والتحف الثمينة تصل إلى مينائها ثم تحمل على ظهور الإبل ثم تنقل بالسفن فى خليج الإسكندرية لتصل إلى الفسطاط.

وكانت الإسكندرية إلى جانب مكانتها التجارية مركزاً لتصدير ما ينتج بمصانعها من المنسوجات الراقية من الحرير الذى كانت تصدره إلى دول العالم المختلفة إلى جانب إنتاجها المتميز من الزيوت والصابون الذى كانت تصدر منه جزءاً كبيراً وقد وصفت الإسكندرية بأنها أجمل المدن على الإطلاق واشتهرت بالأسواق المتسعة التى تستمر حركة البيع والشراء بها طوال اليوم وكان لمدينة الإسكندرية علاقات تجارية مع كثير من بلدان العالم كما كانت مركزاً من المراكز الأساسية فى تمويل خزانة الدولة بالمكوس فيحصل بسواحلها المكوس والرسوم من السفن القادمة لديها وقد تعددت الجاليات المختلفة بها وكانت طائفة اليهود من أكبر تلك الطوائف .

اهتمت الحكومة المصرية منذ الفتح الإسلامى بإنشاء الأسواق التى زادت وتطورت مع اتساع الفسطاط وبناء القطائع وقد تخصصت تلك الأسواق بتصريف الإنتاج المحلى الزراعى والصناعى الذى يأتى إليها من الأرياف أو المدن المصرية، وازدهرت التجارة الداخلية بمصر فى العصر الطولونى لازدهار الأحوال الاقتصادية واهتمام الدولة بتأمين الطرق التجارية، كما بلغت التجارة الداخلية أقصى درجات الأزدهار فى العصر الفاطمى، وكانت الأسواق التجارية تخضع لإشراف حكومى عن طريق شخص يعرف بالمحتسب. الذى كان يختار أحياناً من بين القضاة ليقوم على الأسواق ومراعاة دقة الموازين والمكاييل وأعمال النظافة والنظام فى الأسواق.

وقد اهتمت الحكومة الفاطمية بترتيب الأسواق والاهتمام بتنظيمها وإضاءة الأسواق لتسهيل حركة البيع والشراء طوال الليل

والنهار كما اعتنت بإقامة الأسقف فى الأسواق المكشوفة حتى تقى الباعة والمشترين من أشعة الشمس فى الصيف والأمطار فى الشتاء وقد اهتمت الحكومة بتوفير وتأمين وسائل النقل الداخلية حيث أقامت أماكن مخصصة لتجميع الحمير المسرجة والتى كان يتم تأجيرها بأسعار رمزية حتى يتسنى لرواد السوق من الباعة والمشترين سهول التنقل .

كذلك اهتمت الحكومة الفاطمية بتحديد أسعار السلع التموينية وغيرها حتى تحمى المشترى من جشع كبار التجار ومما يجدر ذكره الأمن والأمان اللذان كانا يسودان الأسواق المصرية فى كثير من فترات العصر الفاطمى مما أدى إلى الرواج التجارى ولذلك فقد تعددت الأسواق الكبرى داخل المدن الرئيسية للبلاد هذا إلى جانب الأسواق فى المدن الصغرى والقرى المصرية.

وتعتبر مدينة الفسطاط من أهم المدن التى اشتهرت بأسواقها ومن أهمها سوق القناديل وسوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين وسوق الحلوانيين وقيل أن عدد الأسواق المشهورة بالفسطاط بلغ تسع عشرة سوقاً ومن المدن المشهورة بأسواقها القاهرة ومن أسواقها سوق باب الفتوح وسوق الشماعين وسوق الدجاجين وسوق الحلاويين وسويقة أمير الجيوش وكانت تعتبر من أشهر وأكبر أسواق القاهرة وكان بها عدة حوانيت فيها الرفاؤون والحياكون وعدة حوانيت للرساميين والفراميين والخياطيين.

وسوق الخفافين حيث تباع خفاف النساء ونعالهن ومن الأسواق أيضاً أسواق مدينة الإسكندرية والتى تركزت حول منطقة وسط

المدينة وقد تعددت الأسواق المتخصصة فهناك سوق الخشابين وسوق السلاح وسق القشاشين وغير ذلك.

وإلى جانب الأسواق الدائمة فقد عرفت مصر فى العصر الفاطمى الأسواق الأسبوعية التى كانت تعقد فى يوم محدد من أيام الأسبوع يعرفه التجار وعامة الشعب ويجتمعون فيه من أجل ممارسة النشاط التجارى من بيع وشراء.

وقد اهتمت الحكومة بتنظيم الأسواق والإشراف عليها عن طريق المحتسب وقد تعددت مجالات إشرافه على الأسواق ونتيجة لاتساع هذه الأسواق وتعددها فقد كان لزاماً على ا لمحتسب أن يتخذ أعواناً أو مساعدين له ممن تتوفر فيهم الخبرة فى الصناعة أو التجارة وقد ظهر دور هؤلاء الأعوان فى العصر الفاطمى حيث كان يتم فى كل سوق من أسواق مصر تعيين عريف من أرباب هذه الصنائع يتولى أمور أهل صنعته ويكون له داخل الأسواق محلات تجارية حتى يتسنى له الإشراف المباشر على أهل صنعته وهناك فريق من العرفاء كان يتم تعيينهم من قبل المحتسب ليكون له الإشراف العام عليهم وينفذ أحكام الحسبة التى كان يصدرها المحتسب بنفسه وكان المحتسب يعاقب العرفاء معاقبة شديدة فى حالة عدم الالتزام بواجبات تلك المهنة ولذا كان على المحتسب ضرورة ملازمة الأسواق والمرور على العرفاء وحثهم على ضرورة إتباع الأصول فى تعاملهم مع التجار كما كان يقوم بالتفتيش على البضائع وإثبات جودتها ومتابعة عدم الغش فى أنواعها كما كان المحتسب يهتم بالمكاييل والموازين وإثبات صلاحيتها والتفتيش على الصنج المستخدمة من

وقت لآخر وكان من اختصاصات المحتسب أيضاً الإشراف المباشر على أصحاب الحرف والمهن فعليه مراقبة الخبازين والجزارين والمطابخ التى يتم بها صنع الوجبات الشعبية المختلفة وكان للمحتسب سلطات واسعة يستطيع من خلالها تنفيذ كل أوامره وكان له الحق فى الاستعانة بالشرطة لتنفيذ أحكام الحسبة وكان بعض الخلفاء يقومون بأعمال الحسبة وخاصة فى أوقات الأزمات الاقتصادية مثل الخليفة الحاكم بأمر الله الذى كان يقوم بنفسه بمباشرة الحسبة وتنفيذ قوانينها وقد حاول التخفيف عن الرعية فى الأزمات التى حدثت فى عهده بين سنتى ٣٥٩ : ٣٩٩ هـ واتخذ كثيراً من الإجراءات التى قضت على الأزمة بعد أن تعهد التجار بتنفيذ أوامر الخليفة.

أما التجارة الخارجية ويقصد بها البضائع التى ترد إلى مصر من الخارج أو تخرج منها، فكان لمصر علاقات تجارية زاهرة مع البلاد الإسلامية فى الشرق والغرب، وكانت هناك أيضاً علاقات تجارية مع العالم المسيحى، وازدهرت هذه العلاقات بصفة خاصة فى مصر الفاطمية، فأصبح لمصر علاقات مع المدن الإيطالية مثل جنوة، والبندقية. كذلك كانت لمدينة أمالفى الإيطالية علاقات مع الدولة الفاطمية وقد عقدت معاهدات تجارية مع الفاطميين فى القرن الخامس الهجرى وقد حصل تجارها على امتيازات بمدينة الاسكندرية التى أكثروا من القدوم إليها للحصول على المنسوجات الحريرية الفاخرة التى تنتجها المصانع المصرية والتى كانت تجد رواجاً كبيراً لدى أباطرة روما – كذلك كان

لجمهورية بيزا الإيطالية علاقات تجارية قوية مع مصر الفاطمية أما جمهورية جنوة فقد كان تجارها ينقلون على سفنهم إلى مصر وبلاد الشام الأقمشة الوبرية القطنية الإيطالية ويحملون من مصر الأقمشة الحريرية التى تنتجها مصانع تنيس . وقد قامت بدور الوسيط التجارى بين شعوب أوربا وبلاد الشرق وكانت تحمل إلى مصر الأخشاب والحديد وتعود سفنها محملة ببضائع الشرق من التوابل والمنسوجات وقد عقدت عدة معاهدات بين الدولة الفاطمية وجمهورية البندقية.

وكانت هناك علاقات تجارية بين مصر والدولة البيزنطية على الرغم من المنازعات السياسية، وقد اشتهرت مصر بتصدير المنسوجات المصرية الشهيرة وأوراق البردى والكتان الخام، والزيوت والقمح، وكانت تستورد فواكه الشام وقطن خراسان وسجاد إيران وغلات الهند والصين بالإضافة إلى المواد الخام كالخشب والحديد من الدول الأوروبية.

اهتمت الحكومة الفاطمية بتحسين علاقاتها التجارية مع التجار الأجانب فسمحوا لهم بإنشاء الفنادق الخاصة بهم، كذلك اهتمت الحكومة بإنشاء الوكالات وهى مثل الفنادق وينزل بها أيضاً التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامى، وكانت تلك الوكالات بجوارها مخازن تؤجر للتجار لحفظ بضائعهم ومن الوكالات التى كان لها وضعها بمصر الوكالة الأميرية التى أنشأها البطائحى وزير الخليفة الآمر والتى خصصت لمن يصل

إلى مصر من تجار العراق والشام ن وقد وجد بمدينة الاسكندرية عدد من الوكالات مثل وكالة الكتان ووكالة البهار والتوابل وغالباً ما كانت الوكالة يتم الاشراف عليها من قبل أحد التجار ويسمى وكيل التجار أو شيخ التجار، ومن المنشآت التجارية فى العصر الفاطمى القياسر، وتشتمل على مجموعة من المبانى الفخمة التى تضم الحوانيت والمخازن ومكانا خاصاً للوضوء وجامع لإقامة الصلاة، وغالباً ما تكون الطبقات العليا لسكن التجار والصناع وقيل أن مدينة الفسطاط كان بها سبع قياسر وكانت القيسارية تعرف باسم صاحبها وقد اهتمت الحكومة الفاطمية بالأمن والأمان داخل تلك القياسر.

ومن المنشآت التجارية فى العصر الفاطمى الخانات ومفردها الخان، والخان عبارة عن مبنى ضخم يشتمل على عدد كبير من الدور مختلفة المساحة ويحوى كثيراً من الحجرات، يتوسطه فناء ضخم على هيئة الرواق ومغطى بحيث يسهل استخدامه كمخزن للبضائع ومأوى للدواب فى حالة إقامة التجار فيه لبعض الوقت وأثناء مرورهم بالبلاد.

العملة:

ويقصد بها نظام المعاملات التجارية أو النقود، فقد استمر التعامل منذ الفتح الإسلامى لمصر بالدنانير الذهبية البيزنطية، التى كانت مستخدمة قبل الفتح، وحدث انتقال كبير بإصدار الدينار العربى بطراز إسلامى خالص عام ٨٧هـ على عهد الخليفة

الأموى عبد الملك بن مروان وصدرت أوامر بإبطال النقود الأجنبية، وأصبحت دور الضرب "ضرب النقود" فى الأسكندرية والفسطاط تعمل على إصدار الدينار الإسلامى للتعامل به محليا ودولياً فى كافة المعاملات التجارية والمالية.

وتشير المصادر إلى الدينار الأحمدى الذى أصدره أحمد بن طولون، واستخدم فى المعاملات التجارية فى العصر الطولونى، وعلى عهد الدولة الأخشيدية صدرت الدنانير الأخشيدية، وظلت مصر تتعامل بهذه العملات، حتى قيام الدولة الفاطمية فأصدر جوهر الصقلى دنانير جديدة سميت بالدنانير المعزية، كما أبقى التعامل بالدينار الراضى "نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى".

عملت الحكومة الفاطمية على أن يتعامل أهالى مصر بنقودها أى "الدنانير المعزية"، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله وهى دراهم فضية، كل ثمانية عشر درهما بدينار – وهكذا سادت فى مصر الدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

الصناعة:

ازدهرت الصناعة فى مصر منذ القدم فعرفت مصر صناعة البناء والورق والنسيج والزجاج والصناعات الخشبية والجلدية، وقد تطورت الصناعة المصرية فى العصر الطولونى، وازدهرت ونشطت الصناعات القائمة وأدخلت صناعات جديدة،

وكانت صناعة النسيج أهم الصناعات المصرية، وكانت أهم مراكزها الأسكندرية ودمياط والبهنسا وأخميم. وفى العصر الفاطمى أصبحت القاهرة مركزاً للصناعات النسيجية، وكانت مصر منذ العهد الفاطمى تقوم بنسج كسوة الكعبة الشريفة، التى كان الفاطميون يحرصون على العناية بها وإرسالها سنوياً إلى الكعبة كرمز للسيادة الفاطمية على الحرمين الشريفين. ولذا فقد اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بصناعة النسيج ، فيأمر المعز لدين الله بإقامة دار الكسوة ويمدها بأمهر الصناع حتى يحصل على أجود الأقمشة والملابس حيث كانت دار الكسوة تمد البلاط الفاطمى بالكسوات الخاصة بالشتاء والصيف إلى جانب الخلع والثياب التى يمنحها الخليفة لرجال دولته فى المناسبات المختلفة وقد ساعدت حياة الترف التى عاشها الفاطميون على ضرورة الاهتمام بأنواع مختلفة من النسيج وقد بلغت شهرة الأنواع المختلفة من المنسوجات درجة كبيرة دعت بعض الدول إلى عقد صفقات تجارية من أجل الحصول على أجود المنسوجات المصرية وقد عينت الحكومة الفاطمية بالإشراف المباشر على المصانع الحكومية والمصانع الأهلية ومن أهم مراكز صناعة النسيج تنيس التى اشتهرت بالقصب التنيسى الملون والبوقلمون وهو قماش ذهبى إلى غير ذلك من منسوجات قيمة ، كما تخصصت مدينة دمياط فى صناعة ثياب الشرب وتفوقت مدينة الاسكندرية فى صناعة المنسوجات الحريرية والكتان الجيد.

ونشطت فى مصر أيضاً صناعة السفن وكان للقبط المصريين مهارة رائعة فى صناعة السفن، وقد زاد نشاط هذه الصناعة فى العصر الطولونى والعصر الأخشيدى، واهتم الفاطميون بصناعة السفن اهتماماً شديداً رغبتهم فى بناء أسطول قوى يمكنه التصدى للأساطيل البيزنطية، لذلك أقام الخليفة المعز لدين الله دار صناعة بالمقس بنى فيها ٦٠٠ مركب من مختلف الأنواع، كما كانت دور الصناعة فى جزيرة الروضة والأسكندرية ودمياط تعمل بنشاط كبير.

ازدهرت بمصر كذلك صناعة البناء وفنون العمارة منذ القدم، وازدهرت هذه الصناعة فى العصرين الطولونى والأخشيدى، وتأثر المعماريون المصريون بالأساليب المعمارية فى بقية أنحاء العالم الإسلامى، كذلك اشتهرت مصر بصناعة الورق، وقد ازدهرت صناعة الورق والتجليد فى العصر الفاطمى لاهتمام الفاطميين بالحياة العلمية والأدبية، ومن الصناعة التى راجت فى مصر الإسلامية صناعة الخزف والزجاج والمعادن، وكانت مدينة الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج، كذلك اشتهرت بهذه الصناعة، الفيوم والأشمونين والأسكندرية، وتقدمت هذه الصناعة فى العصر الفاطمى. كما نشطت كذلك فى مصر كثير من الصناعات الغذائية كصناعة السكر والزيوت هذا إلى جانب الصناعات الأخرى. مثل صناعة الجلود لحاجة الدولة إلى المنتجات المصنوعة من الجلود مثل السروج التى اهتمت الدولة

بانتاجها وكان مسموحاً باستخدامها لكافة رجال الدولة كما كان يصنع منها نوع للعامة لاستخدامه كسروج للحمير . وقد ارتبط بصناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة كما تفوقت مدينة الفسطاط فى صناعة الأنطاع (الأنماط) كما اشتهرت بصناعة الكمرانات والسيور وكذلك صنعوا أنواعاً من النعال أو الأحذية التى ازدهرت فى العصر الفاطمى ومن الصناعات أيضاً صناعة الشموع لسد حاجة البلاد في المناسبات والأعياد المختلفة ولاهميتها خصص لها سوق سمى سوق الشماعين وفى رمضان كانت الناس تقبل على شراء الشموع المركبية وكانت مدينة الاسكندرية من أهم مراكز انتاج الشموع كما نشطت صناعة السكر لحاجة الدولة إلى كميات كبيرة لإقامة الأسمطة والاحتفالات وقد تعددت مراكز صناعة السكر .

٦- الأزمات الاقتصادية فى مصر الفاطمية

على الرغم من الازدهار الاقتصادى الذى تمتعت به مصر فى أغلب فترات العصر الفاطمى والذى كان يتمثل فـى ظهـور حياة الترف والرفاهية بين طبقات الشعب المختلفة إلا أن عوامل الأزمات والانهيار كانت تطل برأسها من وقت لآخر وتؤدى إلى حدوث أزمات اقتصادية وقد اختلفت هذه العوامل التى أثرت فى الاقتصاد المصرى بين عوامل طبيعية وعوامل بشرية .

وتتمثل العوامل الطبيعية فى النقص أو الزيادة فى فيضان النيل وقد تعرضت مصر منذ الأزل لأزمات اقتـصادية متعـددة نتيجة لنقص مياه النيل فقد كان الرى فى مصر يعتمد بالدرجـة الأولى على مياه الفيضان لذلك اهتم المصريون بقيـاس النيـل واعتادوا على اعتبار الستة عشر ذراعاً حداً للوفاء ولكن هذا الحد كان متغيراً من عصر لآخر تبعاً لارتفاع مستوى التربة وارتفاع قاع النهر واختلاف المقاييس بعضها عن بعض .

وقد تعرضت مصر قبيل العصر الفاطمى إلى قحط استمر تسع سنوات عصف باقتصاد البلاد وكان السبب الأساسى لهـذا القحط هو انخفاض ماء النيل حيث توقف منسوبه عنـد خمـسة عشر ذراعاً وأربع أصابع مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وانعـدام الأقوات الأمر الذى جعل الكثيرين من أهل مصر يطلبون النجدة من المعز لدين الله الفاطمى وبعد دخول جوهر الـصقلى مـصر سنة ٣٥٨ هـ عمل على الحد من تلك المجاعـة باتخـاذ بعـض

الإجراءات التى حدثت فعلاً من استفحال الأزمة كان أهمها كتم النداء على مقياس النيل إلا بعد أن يوفى الحد الطبيعى فقد أمر المعز سنة ٣٦٢ هـ بمنع النداء بزيادة ماء النيل وألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى القائد جوهر حتى يتفادى تكالب الشعب على تخزين الغلال خوفاً من حدوث مجاعة أو قحط ، كما اهتموا بنظام الحسبة وتطبيقها فى الأسواق ولم يغفل المعز الاهتمام بمشروعات الرى والصرف حتى يضمن الحد من الآثار السيئة لتذبذب مياه النيل . ولكن الأزمة بدأت تظهر مرة أخرى زمن الخليفة العزيز بالله حيث توقف النيل عن الارتفاع سنة ٣٧٢ ، ٣٧٣ هـ مما ساعد على اضطراب أحوال البلاد وارتفاع الأسعار حتى بلغ ثمن حمل الدقيق أحد عشر ديناراً واقترن بهذا الغلاء وباء أتى على كثير من أفراد الشعب ولكن الخليفة العزيز استطاع أن يتدبر أحوال البلاد ويسيطر على هذه الأزمة فازدهر الاقتصاد وعاشت البلاد حياة رخاء فى عهد هذا الخليفة .

وقد حدثت أزمة جديدة فى عهد الحاكم بأمر الله وذلك بسبب قصور ماء النيل كما يذكر المقريزى الذى وصف هذه الأزمة فيقول فإن الزيادة بلغت إلى ستة عشر ذراعاً وأصابع ، فنزع السعر وطلب القمح فلم يقدر عليه واشتد خوف الناس وعظم الأمر وانتهى سعر الخبز إلى أربعة أرطال بدرهم ".

وقد تكررت الأزمة مرة أخرى سنة ٣٩٥ هـ وساءت الأحوال المالية والنقدية بالبلاد مما أدى إلى اتخاذ الحاكم بعض

الإجراءات منها إشرافه على شئون الحسبة فى الأسواق والقضاء على احتكار الحبوب فأمر بمصادرة كثير من مخازن الغلال وفرق ما بها على الطحانين بأسعار محددة حتى يقضى على احتكارها وحدد أسعار الحبوب.

وقد شهد عهد الحاكم أزمة أخرى فى سنة ٣٩٨هـ/٣٩٩هـ بسبب أن النيل لم يصل إلى حد الوفاء فلم يزد على أربعة عشر ذراعاً وأصابع فأخذت المجاعة تطل مرة أخرى على البلاد واشتدت الأزمات وضج الناس من الجوع واستغاثوا بالحاكم بأمر الله فاتخذ أيضاً بعض الإجراءات التى حدت من آثار هذه الأزمة.

ولم يكن نقص فيضان النيل هو سبب حدوث الأزمات والمجاعات بل كان ارتفاعه عن الحد سبباً أيضاً فى حدوثها مثلما حدث فى سنة ٤٠٨ هـ حيث زاد النيل زيادة كبيرة أغرقت بسببه البلاد والضياع ووصل الماء إلى المنازل مما أدى إلى القضاء على الزرع والثروة الحيوانية حيث نفقت البهائم وانتشر الوباء وفر معظم الناس من مساكنهم ولكن سرعان ما عاد إلى الانخفاض سنة ٤١٠ هـ فاشتد الغلاء وارتفع سعر الدقيق وانتشر الجوع والفوضى بين الناس وماتت أعداد كبيرة من الشعب المصرى .

ولم يخل عصر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ٤١١ – ٤٢٧هـ من اضطراب لأحوال مصر الاقتصادية وحدوث أزمات وكان هذا عندما نقص ماء النيل بين

سنتى ٤١٤ هـ ، ٤١٥ نقصاً شديداً واشتد الغلاء وعم القحط وقلت الثروة الحيوانية وكذلك المواد الغذائية وعرض النـاس أمتعـتهم للبيع وانعدم الأمن حتى أن حجاج بيت الله الحرام عادوا بعـد أن قطعت عليهم الطرق ونهبوا ولم يحج أحد منهم فى عـام ٤١٥ هـ نتيجة لخطورة الطرق وانتشار السلب والنهـب وقـد تـدخلت الحكومة لمعاقبة كثير من التجار فصودرت أموالهم وتجارتهم .

وقد زاد من اضطراب الأحوال فى زمن الخليفة الظـاهر انتشار ظاهرة طبيعية أخرى وهى انتشار الفئران التى أتت على معظم الحاصلات الزراعية وفى النهايـة اسـتطاعت الحكومـة التغلب على هذه المجاعة بعد جهد كبير .

وقد عادت المجاعات زمـن الخليفـة المستنـصر بـالله الفاطمى (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) وكانت أكثر قوة وضـراوة وبـدأت مظاهرها منذ سنة ٤٤٤ هـ حيث قصر النيل وقـد وصـف لنـا المقريزى هذه المجاعات وصفاً تفصيلياً شاملاً وقد زاد من هـذه الأزمة التى حدثت فى تلك السنة خلو المخازن الـسلطانية مـن الغلات وكان الوزير حينئذ الناصر لدين الله اليازورى .

وقد تعرضت البلاد لأزمة خطيـرة أخـرى فـى عهـد المستنصر عرفت بالشدة المستنصرية واشتد الغـلاء وأعطانـا المقريزى أسباباً مختلفة لهذه الشدة فقال " ثـم وقـع فـى أيـام المستنصر الغلاء الذى فحش أمره وكان أمره سبع سنين وسـببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء علـى

الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة" فالمقريزى ذكر أسباباً أخرى لهذه الشدة غير قصور النيل تتعلق بالأحوال السياسية فى الدولة وقد استمرت تلك الشدة من سنة ٤٥٧ هـ إلى سنة ٤٦٤ هـ فزاد الغلاء والوباء ومات من أهل مصر الكثير كما قيل أنه أكلت الكلاب والقطط وقد أصاب التدهور المدن الكبرى وحل الخراب بجميع مرافق البلاد التجارية والصناعية والزراعية وقد تعذر على الخليفة دفع رواتب الجند بصورة منتظمة وعندما ثاروا عليه أخذ يخرج من خزائن السلاح والأقمشة والتحف النادرة ويعطيهم هذه الأشياء الثمينة كبديل عن رواتبهم حتى نفذت كل ثرواته ويقول المقريزى " وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت".

دور بدر الجمالى فى الشدة المستنصرية

واضطر المستنصر أن يبعث إلى أمير الجيوش بدر الجمالى الذى حضر سنة ٤٦٦ هـ واستطاع أن يقضى على هذه الأزمة فقد قبض على الأتراك وتتبع المفسدين وقد ساعده على بناء الاقتصاد المصرى التفويض الذى منحه الخليفة المستنصر لبدر مما ساعد على القضاء أولاً على مثيرى الشغب والخارجين على الدولة ثم أخذ يحارب الفساد وأعاد تنظيم جميع مجالات الاقتصاد وبدأ بالزراعة التى توقفت تماماً زمن الأزمة فأطلق خراج البلاد لمدة ثلاث سنوات للفلاحين حتى تتحسن أحوالهم وأعاد تنظيم ميزانية الدولة وجهازها المالى والإدارى كما أعاد

للتجارة ازدهارها فأمن الطرق ، وقد فاض النيل فى هذا الوقت فزرعت الأراضى وأنتجت محاصيل قضت على أزمة الغذاء وانزاح كابوس الغلاء وأخذت البلاد تستعيد ازدهارها الاقتصادى ولكن من ناحية أخرى فقد ترتب على مجئ بدر الجمالى أن بدأت فى الدولة الفاطمية مرحلة جديدة هى عصر حكم الوزراء العظام فأصبح الوزير يمثل السلطة الفعلية فى البلاد ، أما الخليفة فقد تراجعت سلطته وهيبته وسلطانه فأصبح مجرد رمز ليس له سوى السلطة الأسمية فقط وبدأ العصر الفاطمى الثانى الذى تميز بسمات خاصة كان منها صراع الوزراء والذى كان من أسباب ضعف الدولة الفاطمية .

وقد تكررت الأزمات الاقتصادية مرة أخرى زمن الخليفة المستعلى (٤٨٧: ٤٩٥هـ) فيذكر المؤرخون أن غلاء وجوعاً وقع بمصر واستمر ستة أشهر متواصلة وكان يرجع هذا إلى نقص فيضان النيل وقد تكرر نفس الشئ فى سنة ٤٩٦ هـ حين ازداد نقص ماء النيل فاشتد الغلاء وعدمت الأقوات وكان هذا فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله وقد وقف الخليفة فى وجه هذا الغلاء بأن كلف القائد أبى عبدالله بن فاتك الملقب بالمأمون البطائحى أن يتتبع التجار والمحتكرين وأن يصادر ممتلكاتهم فى حالة عدم الالتزام ببيع القمح بالأسعار المحدد واستمر هذا التشديد من قبل الحكومة على التجار إلى أن قضى على الأزمة نهائياً .

ولم يكن نقص ماء النيل كما ذكرنا السبب الأساسى فى

الأزمات الاقتصادية بل أن الارتفاع الزائد فى مياهه كانله تأثيره المدمر أيضاً على اقتصاديات البلاد فقد بلغ النيل فى سنة ٥٤٣ هـ – ١١٤٨م زمن الخليفة الحافظ ، تسعة عشر ذراعاً وأربع أصابع فغرقت معظم البلاد فقطعت الطرق وانتشرت الفوضى وتعطلت التجارة نتيجة لإعاقة المياه لكثير من التنقلات البرية .

ولم يخل عصر الخليفة الفائز من غلاء أثر على الاقتصاد بصورة واضحة، فنجد الغلاء اشتد بمصر سنة ٥٥١ هـ ثم اشتد بعد ذلك فى سنة ٥٥٤ هـ فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك وأدى قصور النيل الذى بلغ خمسة عشر ذراعاً وأصبعاً إلى ارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية وقام الوزير طلائع بن رزيك ببعض الإجراءات حيث أعطى الطحانين حصصاً معينة ، بأسعار مدعمة حتى يقضى على احتكار تجار الغلال ، ثمم تتبع التجار الجشعين وصارد مخازن الغلال الخاصة بهم وفرقها على جماعة الفقراء والمحتاجين واستطاع تدريجياً القضاء على هذه الأزمة.

العوامل البشرية

لم تكن العوامل الطبيعية وحدها سبباً للمجاعات والأزمات التى حلت بمصر فى العصر الفاطمى بل هنالك عوامل بشرية تمثلت فى بعض الأحيان فى احتكار القوت وتلاعب المحتكرين به فى غفلة من الخلفاء والسلطة .

ومن الأسباب البشرية الأخرى صراع الجند فى الدولة الفاطمية فقد اعتمد الفاطميون على عناصر مختلفة فى تأليف قوتهم الحربية وكان الغرض من هذا فى أول الأمر هو إحداث تنافس بين تلك العناصر تستطيع الدولة به أن تحكم سيطرتها على الجند وتضمن ولاءهم. وعلى هذا فقد تعددت عناصر الجيش الفاطمى كما ذكرنا مما أدى إلى ظهور التنافس والتناحر بين طوائف الجيش وكان هذا من أهم أسباب الفوضى والاضطراب داخل البلاد وبالتالى من أهم أسباب انهيار الاقتصاد المصرى وحدوث أزمات اقتصادية فى العصر الفاطمى .

ومن أمثلة هذا الصراع بين طوائف الجند وأثره على البلاد ما كان بين المغاربة والأتراك زمن الخليفة الحاكم بأمر الله والذى أخذ يشتد بين الفرقتين مما أثر على أحوال البلاد ودفع الناس إلى التزام بيوتهم فى ذلك الوقت وعدم الخروج للسعى وراء أرزاقهم فقطعت سبل الحياة الاقتصادية وتعطلت كثير من موارد البلاد وكان الخليفة يلجأ أحياناً إلى ضرب طوائف الجند بعضها ببعض مثلما فعل حين قرب إليه السودان والأتراك وضرب بهم المغاربة فكانت تلك الصراعات من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تخريب الاقتصاد المصرى وحدوث أزمات اقتصادية وقد تزايد الصراع بين طوائف الجند بصورة واضحة زمن الخليفة المستنصر ٤٢٧ – ٤٨٧هـ وكان سببه ضعف الإدارة الفاطمية وكثرة تغيير الوزراء والقضاة وعدم استقرارهم فى مناصبهم مدداً

كافية تجعلهم يمارسون سلطاتهم فى إدارة الدولة ممـا أدى إلـى اضطراب الأمور وانتشار الخلل بالجهـاز الإدارى واضـطراب الأحوال الاقتصادية .

ومن أسباب الأزمات الاقتصادية فى العصر الفاطمى أيضاً صراع الوزراء ورجالات الدولة وكان أول هذه الصراعات مـا حدث بعد موت الخليفة المستنصر بالله وأخذ البيعة لابنه أبو القاسم أحمد الملقب بالمستعلى بالله دون أخيه نزار ، أما الصراع الآخر فكان بين أبناء الخليفة الحافظ وقد لعب دوراً خطيراً فى التـأثير على اقتصاديات البلاد فقد توقفت الحياة الاقتصادية وانقسم الجند إلى فريقين فريق مع حيدرة والآخر مع حسن وهمـا الريحانيـة والجيوشية وقامت بينهما حروب شرسة وقتلت أعداد غفيرة.

ومن الأسباب التى أدت إلى حدوث أزمات اقتصادية أيضاً تلك الأموال الطائلة التى كانت تخرج من الخزانة الفاطمية مـن أجل إعداد الحملات الحربية الضخمة للوقوف ضد الأخطار التى كانت تهدد الدولة ، وكانت من الحركات التى استنزفت كثيراً من ميزانية الدولة فى سبيل إعداد جيش ضخم تلك الحركة التى قـام بها أبو ركوة فى برقة وقد استطاع هذا الرجل أن يجمـع حولـه عدداً من القبائل العربية المقيمة ببرقة وكانوا على عداء مع الدولة الفاطمية .

وقد بذل الخليفة الحاكم بأمر الله الكثير من الأموال التـى خرجت من خزانة الدولة للإنفاق على الجيش الكبير الذى خـرج

للقاء أبى ركوة حتى استطاع القضاء على حركته بعد أن أثرت على اقتصاد البلاد حتى قيل أن الحركة التجارية كانت تتوقف فى كثير من الأحيان ، وتتعطل الزراعة مما أدى إلى اضطراب الاقتصاد وارتفاع الأسعار بسبب السلب والنهب الذى أحدثته القوات المرافقة لأبى ركوة سواء بمنطقة الفيوم أو الجيزة أو ببلاد الصعيد حيث استمر السلب والنهب طوال فترة الثورة ولكن تماسك الشعب المصرى ووقوفه خلف الحاكم للقضاء على حركة أبى ركوة والحفاظ على كيان البلاد جعل التجار يقفون فى وجه هذا الغلاء حتى يجنبوا البلاد المجاعة والقحط وخرجت البلاد من تلك الأزمة بسلام .

ومن أسباب الأزمات الاقتصادية فى مصر الفاطمية أيضاً مساندة الحركات الانفصالية ضد الدولة العباسية مما ساعد على استنزاف خزانة وموارد البلاد ومن هذه الحركات الحركة التى قام بها البساسيرى (ابن الحارث أرسلان) ضد الدولة العباسية وإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى بغداد .

فمنذ استقر الفاطميون بمصر وهم يبذلون ما فى وسعهم لتوطيد دعائم دعوتهم والقضاء على الخلافة العباسية المنافسة ومن هذا المنطلق اهتموا بإرسال دعاتهم إلى حاضرة الدولة العباسية وأمدوهم بالأموال الطائلة وقد نجح هؤلاء الدعاة فى جذب الكثير من أهالى العراق إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى وقد كان من بنى بويه الأتراك أبو الحارث أرسلان البساسيرى

الذى سيطر على الأمور فى بغداد وزاد نفوذه فى الـبلاد حتـى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه ضعيفى الجانـب وقد انتهى به الأمر أن خرج من بغداد مغضوباً عليـه وراسـل الخليفة المستنصر بالله وأعلن دخوله فى طاعة الدولة الفاطميـة وقد سارع الخليفة الفاطمى بإمداد أبـى الحـارث البـساسيرى بالأموال والخيل والسلاح وكلف بحمل تلك الإمـدادات الـداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى تصحبه فئة من الرجال تحمل الأموال والخيل والسلاح التى اشتملت على ألف ألف وثلثمائة ألف دينار والعين ألف ألف وتسعمائة ألف دينار، والعروض أربعمائة ألف دينار، وكانت هذه الإمدادات كبيرة جداً بالنسبة لإمكانيـات الدولة فى تلك الفترة أى فى سنة ٤٤٨ هـ حيث كانت مصر تواجه أزمة اقتصادية طاحنة ولهذا فقد ذكر كثير من مؤرخى تلك الفترة أن هذه الإمدادات التى أرسلها الخليفة الفاطمى كانت سبباً رئيسياً فى انهيار الاقتصاد وضعف البلاد.

وقد شهد العصر الفاطمى الكثير من الحمـلات الحربيـة الأخرى التى استنزفت أموال البلاد وقضت على ما فى خزانتها من أموال ومدخرات وأدت إلى حدوث أزمات اقتصادية بمصر.

٧- الحياة الثقافية

قامت الخلافة الفاطمية فى مصر لتنافس الخلافة العباسية وتحاول أن تقضى عليها وقد استعان الفاطميون بكافة السبل للقضاء على الخلافة العباسية ومن الأسلحة التى برعوا فيها سلاح العلم والأدب والثقافة ، إذ أن مذهبهم الشيعى الذى كان يخالف مذهب الخلافة العباسية كان فى حاجة إلى دعوة وكسب المؤيدين فى أنحاء العالم الإسلامى ، ولهذا فقد قربوا إليهم العلماء والأدباء والمفكرين ، وساعدهم حبهم للعلم والآداب وإغداقهم الأموال على هؤلاء على تنفيذ أهدافهم فأصبحت القاهرة فى عهدهم كعبة للعلوم والفنون ومركز إشعاع جذب إليه الكثيرين من العلماء والشعراء وأهل الفنون المختلفة .

كان للجامع الأزهر أثر كبير فى ازدهار الحياة الثقافية فى مصر الفاطمية وقد ظهرت فكرة الدراسة به فى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى حين قام قاضى القضاة أبوالحسن على بن النعمان المغربى بشرح كتاب " الاقتصار " الذى وضعه أبوه ويشتمل على مسائل فقهيه استمدها من أئمة أهل البيت ، كما أن أخاه أبا عبدالله محمد بن النعمان جلس فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ بالقصر لقراءة علوم أهل البيت .

وفى أوائل عهد العزيز بالله جلس الوزير يعقوب بين كلس بالجامع الأزهر وقرأ عل الناس رسالة ألفها فى الفقه الشيعى على المذهب الإسماعيلى ، تسمى الرسالة الوزيرية تضمنت ما سمعه

فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاء فكان يعقد مجالسه العلمية أحياناً بالجامع الأزهر ومرات فى داره يقرأ فيها مصنفاته على الناس .

وما لبث الأزهر أن تحول إلى معهد للدراسة بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية ونشر المذهب الشيعى ، منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز فى أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس ، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع فىكل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقاً شهرية ثابتة وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر ، وبذلك كان الوزير يعقوب بن كلس أول من فكر فى اتخاذ الجامع الأزهر معهداً للدراسات المنظمة المستقرة وهى الخطوة الأولى التى جعلت من الأزهر فيما بعد تلك الجامعة الشامخة .

كذلك اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات رغبة فى الحصول على أكبر عدد من الكتب ابتغاء نشر تعاليم مذهبهم وازدهار الحياة الثقافية وقد قيل أن المعز قد حمل معه إلى مصر عدداً عظيماً من الكتب التى كانت فى مكتبته الخاصة بالقيروان ، وقد عنى الخلفاء الفاطميون ووزرائهم باقتناء الكتب الخطية النادرة فى مختلف العلوم ، ولهذا فقد ألحقوا بالقصر الشرقى الكبير مكتبة زودوها بأندر المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حتى تميزت على غيرها من مكتبات العالم الإسلامى بما فى خزائنها من كتب قيمة .

وكانت تجار الكتب يعرضون على موظفى مكتبة القصر أندر الكتب التى يعثرون عليها وقد وصف المؤرخون مكتبة القصر بأنها كانت من عجائب الدنيا فقالوا" ويقال أنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، ويقال أنها كانت تشتمل على ٦٠٠,٠٠٠ كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة" وقد عنى الخلفاء الفاطميون فى جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد ، حتى لا يتاح لمكتبات بغداد أو قرطبة المنافسة اقتناء هذه الكتب لذلك نجح الفاطميون فى جمع عدد عظيم من نسخ بعض الكتب التى لم يكن لها وجود فى المكتبات الأخرى .

وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم ، وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف والرفوف مقطعة بحواجز وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد فى الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والفلك والكيمياء .

ومن المراكز الثقافية فى مصر الفاطمية دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ وقد أطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة ، وقد التحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء ، ووقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم حوت الكثيرمن الكتب فى سائر العلوم

والآداب من فقه ونحو ولغة وسمح لسائر الناس علـى طبقـاتهم التردد عليها وقد عنى هذا الخليفة ومن جاء بعده بإجراء الأرزاق على موظفيها ومن بها من الفقهاء ، كما جعل فيه ما يحتاج إليـه المطالعون والنساخ من الحبر والأقلام والمحابر والورق .

وكان الطلاب يتلقون فى دار الحكمة إلى جانـب العلـوم الدينية وفقه الشيعة الكثير مـن علـوم اللغـة والفلـك والطـب والرياضة والفلسفة وهكذا كانت تغلب عليهـا الـصفة العلميـة وكانبين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحـساب والمنطـق والطب والنجامة من أمثال ابن يونس المنجم ، وأبو على الحسن بن الهيثم ، وعلى بن رضوان .

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتـذب كثيراً من أعلام المشرق من أمثال الرحالة الفارسى ناصـر خـسرو والداعى الحسن ابن الصباح الذين وفدا إلى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى .

وقد ظلت دار العلم مفتوحة حتى سـنة ٥١٦ هـ حيـث أمـر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى بإغلاقها بـسبب مـا وصل إليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفـة بالبديعيـة التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهـى الـشافعى والحنفـى والمالكى يترددان على دار العلم وأن كثيرين من الناس تأثروا بهـذا المذهب. على أن فترة إغلاق دار العلم لم تستمر فقد أعادها الخليفـة الآمر إلى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل .

وقد تأثرت المكتبات الفاطمية بالشدة التى حلت بمصر فى عهد المستنصر ففقدت الكثير من الكتب ، ولكن استطاع الفاطميون بعد ذلك أن يعوضوا بعض ما فقدوه.

وإلى جانب المساجد والمكتبات اتخذ الخلفاء الفاطميون من قصورهم مراكز لعقد المجالس العلمية والأدبية ، ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب وأباح لهم جميعاً الإطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر وحذا الخلفاء من بعده حذوه فصاروا يعقدون المجالس العلمية والأدبية بقصورهم ويحضرها الفقهاء والعلماء والأدباء وغيرهم .

كان الاختلاف المذهبى بين السنة والشيعة فى مصر عاملاً على نشاط حركة التأليف إلى جانب عقد المجالس العلمية للمناظرة والنقاش وقد ظهرت مئات الكتب تدعو للشيعة وترد على اتهامات السنة وكان لأبى حنيفة النعمان المغربى وأبنائه وهم جميعاً من كبار رجال العلم والقضاء الفضل الكبير فى نشر الثقافة المذهبية التى تتعلق بالدعوة الإسماعيلية .

ومما يجدر ذكره أنه على الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلى فقد ظهر فى عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية منهم أبوبكر محمد النعالى المالكى المتوفى سنة ٣٨٠هـ وكانت حلقته بجامع عمر بن العاص تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها .

كان للوزراء أثر كبير فى ازدهار الحياة الثقافية فى مصر الفاطمية فلم يقتصر دورهم على حبهم للعلم والأدب ، وتشجيعهم للعلماء والشعراء وغيرهم بل كان منهم من قام بالتأليف فى مختلف أنواع العلوم. فيعقوب بن كلس أول وزراء الدولة له كثير من المؤلفات ، فألف كتاباً فى القراءات وكتاباً فى علم الأبدان ، وكتاباً فى الفقه الإسماعيلى وكتاباً فى الأديان ، وأشهر كتبه كتابه فى مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية وكان ابن كلس إلى جانب تبحره فى علوم الفقه أديباً بارعاً وشاعراً وكانيعقد فى داره مجلساً خاصاً كل ثلاثاء يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل يتناظرون بين يديه وكان فى داره عدة كتاب ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدب وغيرها من العلوم ، فإذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت ونتيجة لولع ابن كلس بالتأليف وجمع الكتب فقد صار لديه مكتبة عظيمة ويغلب أن هذه المكتبة قد ضمت إلى مكتبة القصر الفاطمى بعد وفاته فاستفادت هذه المكتبة التى كان لها شهرة عظيمة أعظم استفادة .

وكان الوزير الأفضل أيضاً محباً لجمع الكتب حتى وجد لديه بعد قتله مكتبة بها خمسمائة ألف كتاب .

أما المأمون البطائحى فقد عنى عناية خاصة بعلوم الطب ، فعندما وصل الطبيب أبوجعفر يوسف بن حسداى الأندلسى نزل ضيفاً على الدولة وأطلقت له الهبات والرسوم وخصصت له دار

بالقاهرة وأكثر من هذا كتب له منشور يمجد صناعة الطب ويذكر مآثر ابن حسداى على علم الطب وعنايته بشرح كتب أبقراط، ثم يقرر السجل تعيينه أستاذاً لهذا العلم يجيز من يراه أهلاً لهذه الصناعة ويقصده كل من يريد الاستزاده وجعل له يومين فى الجمعة يشتغل فيهما ويتوافر فى بقية الأسبوع على التصنيف وحمل ذلك إلى الخزائن، ومن كتب ابن حسداى التى قدمها للمأمون " الشرح المأمونى" وهو شرح لكتاب الإيمان لأبقراط" وبذلك ساعد المأمون على ظهور جيل من الأطباء تخرجوا على يد ابن حسداى. كما أنه أعاد فتح دار الحكمة وهى الدار التى أنشأها الحاكم وقد أعيد افتتاحها سنة ٥١٧ هـ على نمط جديد يخفف من طبيعة صبغتها المذهبية وعنى فيها بتدريس القرآن وعلومه وخصص لها الأوقاف للإنفاق عليها.

وقد أنشئت فى العصر الفاطمى مدرسة لدراسة الفقه وعلوم الدين وهى المدرسة العوفية التى أنشأها الوزير رضوان بن لولخشى سنة ٥٣٢هـ وجعل على رأسها الفقيه المالكى بن الطاهر بن عوف وكان يقيم بها طلاب العلم ويجرى عليهم الأرزاق وصدر سجل عن الخليفة بإنشاءها وجعل اسمها المدرسة الحافظية نسبة للخليفة الحافظ وإن غلب عليها اسم المدرسة العوفيه نسبة للفقيه الكبير.

كما أسس الوزير أبوالحسن على بن السلار وزير الظافر مدرسة أخرى فى الإسكندرية وكانت سنية أيضاً على المذهب

الشافعى ، وجعل رياستها للحافظ السلفى وسميت بالمدرسة السلفية فكانت ثانى مدرسة أنشئت فى مصر بعد مدرسة ابن عوف وكان منهاج الدراسة فى المدرسة منهاجاً دينياً وكانت الدروس التى يلقيها السلفى تدور حول الفقه والتفسير والحديث وقد ظلت هذه المدرسة قروناً طويلة كعبة لطلاب العلم .

وكان للعناية الكبيرة التى أولاها الوزراء للعلماء والأدباء وإغداقهم الأرزاق عليهم أكبر الأثر فى ازدهار الحياة العلمية والأدبية بمصر ووفود العلماء والأدباء من كل مكان وأن يقبلوا على التأليف فى كل العلوم كما كان من عوامل ازدهار الكتابة الفنية فى العصر الفاطمى أن معظم وزراء العصر الفاطمى الأول كانوا من الكتاب حتى أسماهم المؤرخون الوزراء أصحاب الأقلام.

وقد وفد على مصر كثير من الشعراء فى العصر الفاطمى لمدح الخلفاء لما كان يغدقه هؤلاء من العطايا الجزيلة والجوائز والأرزاق المخصصة لهم مقابل الإشادة بمجد الفاطميين وأحقيتهم فى الخلافة ومن الشعراء الذين عاشوا فى زمن العزيز الفاطمى أبو عبدالله محمد بن أبى الجرع ، ومن أشهر الشعراء الذين وفدوا على مصر وعاصروا ابن كلس وخدموا العزيز أيضاً أبوعبدالله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز القيروانى النحوى ، وقد حفل قصر ابن كلس بكثير من الشعراء والأدباء وكان الوزير إذا ما انتهى من مجالس العلم والفقه التى كان

يعقدها، قام الشعراء يتبارون فى مدحه وكان بدوره يغدق عليهم المنح والهبات .

وعلى هذا فقد وجد العلماء والأدباء فى كنف الوزراء الفاطميين الرعاية والتشجيع ومن أمثلة هؤلاء الوزراء أيضاً الجرجرائى واليازورى ولعل أبرز الشخصيات العلمية التى ظهرت فى تلك الفترة المؤرخ المصرى والفقيه الشافعى القضاعى (أبو عبدالله بن سلامة بن جعفر المتوفى سنة ٤٥٧هـ) وقد وجد الرعاية والتشجيع برغم مخالفته لمذهب الدولة وتولى القضاء وعمل فى ديوان الإنشاء واتخذه الجرجرائى ثم اليازورى كاتباً لإنشائه وقد ألف القضاعى كثيراً من الكتب من أهمها كتابه (خطط مصر) الذى اعتمد عليه المقريزى فى كتابه الخطط .

ولقد أخذت الحركة الفكرية والثقافية فى الضعف والتدهور فى أواخر القرن الخامس نتيجة لضعف الخليفة والوزراء وكانت الأحداث والفتن التى تعرضت لها البلاد فى الداخل والخارج عاملاً فى إهمال الحركة العلمية حتى إن مكتبة القصر التى كانت أعظم مكتبة فى ذلك الوقت قد أصابها من المحن والتخريب الشئ الكثير وقيل أن كتبها نهبت ، ولما أعاد بدر الجمالى الاستقرار للبلاد عاد للحياة العلمية والفكرية ازدهارها وقوتها وأخذت مصر تجذب إليها من جديد العلماء والأدباء وأخذ العلماء يتجهون بمؤلفاتهم والشعراء بأشعارهم إلى الوزراء الذين أصبحوا أصحاب السلطة الحقيقية .

ومن هؤلاء الوزراء الأفضل بن بدر الجمال الذى كان معروفاً بحبه للشعر والشعراء ويذكر أنه كان له مجلس فى دار الملك يعرف بمجلس العطاء به ثمانية مظاريف من الديباج فى سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار يهب منها من يقف بين يديه من الشعراء ومن الشعراء الذين نعموا بجود الأفضل ، أبو الفتيان مفضل ابن حسن بن خضر العسقلانى، وأبوالحسن على بن إبراهيم الملقب بابن العلانى ، وأبوالفضل جعفر بن الفضل الملقب بالمهذب وظافر الحداد الذى أكثر من مدح الأفضل والخليفة .

واشتهر المأمون البطائحى بإكرام وتشجيع العلماء فوفد عليه الكثيرون ومنهم الفقيه أبوبكر محمد الطرطوشى من الإسكندرية بمؤلفه "سراج الملوك" فأكرمه المأمون ، ولقد كان الصالح بن رزيك برغم تعصبه للمذهب الشيعى يجتمع بفقهاء السنة ويستمع إليهم وكان يعقد مجالس العلم والأدب كما كان كثير الاهتمام بالشعراء واتخذ منهم أصدقاء وجلساء ومنهم عمارة اليمنى الذى ذكر أسماء بعض الشعراء والأدباء الذين قابلهم فى مجلس هذا الوزير .

ويعد عمارة اليمنى خير مثال لما كان يلقاه الشعراء من تشجيع الوزراء وما كان لهذا التكريم من أثر فى أدبهم ، فإن عمارة كان سنياً شافعياً ولم يمنع ذلك ابن رزيك من العطف عليه وتقريبه له وقد انهالت عليه صلات الوزير مما جعل عمارة السنى يسخر شعره فى الإشادة بذكر الفاطميين والانتصار لهم

والدفاع عنهم حتى بعد القضاء على دولتهم مما أدى به إلى القتل بأمر صلاح الدين .

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب والشعراء أثره فى ظهور طائفة كبيرة منهم فى مصر فاشتهر من المـؤرخين فـى العصر الفاطمى أبو الحسن على الشابشتى المتوفى سـنة ٣٨٨ هـ وقد اتصل بخدمة العزيز فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه وله كتاب "الديارات" أورد فيه أخباراً عن أديرة العـراق والجزيرة والشام ومصر، كما نبغ من المؤرخين فى هذا العصر الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحى الذى ولد بمـصر سنة ٣٦٦هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته وقد تولى فى عهده بعض المناصـب الهامـة وشغف بكتابة التاريخ فألف فيه عدة كتب منها تاريخـه الكبيـر المسمى "تاريخ مصر".

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى العصر الفاطمى أبو القاسم على بن منجب الصيرفى وقد اشتهر ذكره وعلا شـأنه فى البلاغة والشعر كما برع فى الخط وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الإنشاء للخليفة الآمر بأحكام الله، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦ هـ من تصانيفه كتاب "قانون ديوان الرسائل" و"الإشارة إلى من نال الوزارة" الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الآمر، وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتـى أيامـه وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ سنة (٥٤٢هـ).

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال أبى على محمد ابن الحسن بن الهيثم وأصله من البصرة ثم أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل ، وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات وقد ألف نحـو مـائتى كتـاب فـى الرياضة والطبيعـة والفلسفة واستمر فـى التـأليف حتـى توفى سنة ٤٣٠هـ.

واشتهر من الأطباء والفلاسفة أبوالحسن على بن رضوان وهو مصرى المولد من الجيزة ، وقد أصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى وتدل الكتب التى ألفهـا فـى الطب وغيرها على سعة فكره وإطلاعه كما أن لـه كتبـاً فـى الفلسفة والمنطق وغيرهما وكان على بن رضوان مجـدداً فـى صناعته فلم يعمد فى مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبلـه من الأطباء بل تميز بالتفكير والابتكار وظل يعمل باجتهاد حتـى توفى سنة ٤٦٠ هـ فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى .

٨- الفنون والعمارة

كان للرخاء الذى عم البلاد فى معظم فترات العصر الفاطمى أثره الكبير فى قيام نهضة فنية وعمرانية شارك فى ازدهارها الخلفاء والوزراء بل كان للوزراء دور كبير وفضل لا ينكر فى هذه النهضة بما أولوه للفنانين من تشجيع ورعاية ، كما كان للثراء العريض الذى نعم به معظم الوزراء والحياة المترفة التى عاشوها عامل كبير فى ذلك .

ويعتبر العصر الفاطمى من أزهى عصور العمارة الإسلامية إذ بلغت ضخامة العمائر وإبداع زخارفها درجة عالية من الرقى ولهذا كثرت قصورهم وتعددت مساجدهم وجوامعهم .

أولاً : القصور والمناظر

ومن مظاهر التقدم الحضارى فى العصر الفاطمى تلك القصور الفخمة التى أقامها الخلفاء ووزرائهم ورجال دولتهم وغيرهم فمنذ دخول جوهر مصر سنة ٣٥٨ هـ أسس لمولاه المعز لدين الله القصر المعروف بالقصر الشرقى ويعتبر أول قصر فاطمى بنى بمصر ليكون مقراً لإقامة الخليفة ومركزاً لحكومته وقد أنفق على تشييده وتأثيثه أموالاً طائلة أسهب المؤرخون فى ذكرها وقد اهتم الفاطميون بتجميل الحدائق التى تحيط بالقصر فقد وجدت حوله بساتين تحتوى على نباتات نادرة حتى يصبح هذا القصر مميزاً .

وقد اشتمل القصر من الداخل على عدد من الإيوانات قيل أنها اثنا عشر جناحاً وكان أهم تلك الإيوانات أو القاعات الإيوان الكبير وقد خصص لجلوس الخلفاء يومى الاثنين والخميس كما كان يقام بها سماط شهر رمضان وسماط العيدين .

وقد اشتمل القصر على عدة قصور بلغت اثنى عشر قصراً صغيراً وأيضاً على عدد كبير من الخزائن الضخمة التى كانت تستخدم كأماكن لحفظ الأشياء النادرة مثل خزانة الكسوة ، وخزانة الكتب التى يذكر أنها كانت تتكون من أربعين حجرة تحتوى على كتب الفقه وكتب التواريخ والكتب الخاصة بالفلك والكيمياء إلى جانب احتوائها على كثير من المصاحف النادرة وقيل أنها كانت من أعظم خزائن الكتب فى العالم الإسلامى .

ومن الخزائن أيضاً خزائن الجوهر وخزائن السلاح وقد أعدت لصنع الأسلحة وتخزينها لحين تجهيز الجيوش وإعدادها للحرب وخزانة التجميل وغير ذلك .

ومن القصور الفاطمية أيضاً " القصر الغربى " أو قصر البحر وكان البعض يطلق عليه القصر الصغير تمييزاً له عن القصر الشرقى الكبير وقد شيد فى عهد الخليفة العزيز بالله وبلغ درجة كبيرة من الرقى الهندسى وعظمة المعمار وقد أصبح هذا القصر مخصصاً لإقامة السيدة ست الملك ابنة العزيز بالله بعد وفاته .

ومن القصور الفاطمية قصر القرافة وقد شيد للسيدة تغريد زوجة الخليفة المعز فى سنة ٣٦٦ هـ زمن الخليفة العزيز ، وهو من أعظم القصور وقد ألحق به بئر وبستان وجامع واستخدم للنزهة لجمال عمارته ، وإتقان بنائه وقد تم تجديده على يد الخليفة الآمر بأحكام الله وكان يجلس فى المنظرة ليشاهد احتفالاتهم تحت هذه المنظرة واستمر هذا القصر قبلة لكثير من الخلفاء الفاطميين حتى زوال دولتهم .

ومن القصور المشهورة قصر اللؤلؤة أو منظرة اللؤلؤة وكان على الخليج بالقرب من باب القنطرة وقد شيد بحيث يشرف على البستان الكافورى أما من الناحية الغربية فكان يطل على الخليج والبساتين العظيمة والبركة التى كانت تعرف ببطن البقر وقيل أن هذا القصر تم بناؤه زمن الخليفة العزيز ثم أعيد بناؤه زمن الخليفة الظاهر وجددت عمارته زمن الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) حيث كان يخرج إلى هذا القصر فى وقت وفاء النيل مع حواشيه متجهاً إلى قصر اللؤلؤة .

ومن القصور الفخمة فى العصر الفاطمى قصر الهودج الذى بناه الخليفة الآمر لمحبوبته التى عشقها وتزوجها ، وفى عهد الخليفة الآمر أيضاً شيدت منظرة جميلة تعرف بمنظرة بركة الحبش وجعلها من الخشب المدهون وجعل فيها طاقات تشرف على خضرة البركة وصور فيها عدداً من الشعراء وبجوار كل واحد دونت بعض أبيات من شعره .

إلى جانب ما سبق فقد تفـنن خلفـاء الدولـة الفاطميـة وورزائهم فى بناء المناظر والبساتين فى أماكن متفرقة وبعضها كانت من أجل احتفالات وأعياد معينة والبعض الآخر من أجـل النزهة والترويح عن النفس أو توزيع الحمـلات الحربيـة عنـد خروجها ومن هذه المناظر منظرة السكرة ، ومنظرة الدكة وكان لها بستان عظيم وكانت من جملة متنزهات الخلفاء فـإذا ركـب الخليفة يوم كسر الخليج يمر عليها وكان يدخلها منفرداً .

وهناك منظرة المقس وكانت مطلة على النيل ومعدة مـن أجل نزول الخليفة بها فى وقت تجهيز الأسطول .

لم تقتصر حياة الترف وإنشاء القصور على الخلفاء وحدهم بل شاركهم الوزراء أيضاً فى تلك الحياة المترفة حيث الثـراء والنعمة التى كانت تتجلى فى القصور الفخمة التى تماثل قصور الخلفاء ، فكان للوزير يعقوب بن كلس قصر ينافس قصر الخليفة ويزخر بالكثير من التحف النادرة التى تملأ الخـزائن المختلفـة بالقصر وقد جعل من قصره قلعة للعلم والعلماء وقيل كان قصره به مكتبة ضخمة ضمت كتب الطب والفقه والأدب .

وكان الوزير اليازورى شديد الولع ببناء القصور وتأثيثها بأفخم الفرش والأثاث ، ولم يقتصر بناء القصور علـى الخلفـاء والوزراء وإنما تعداه ليشمل أفراداً عدة من طبقات كثيـرة مـن الشعب المصرى عاشت حياة الترف والرفاهيـة فـى العـصر الفاطمى وتجلت مظاهر هذا الترف فى صـورة إقامـة منـازل

ضخمة فخمة جميلة وجعل بعضهم أسطح تلك المنازل حدائق غناء .

وكانت الدور العادية أو دور العامة بالفسطاط تتألف من عدة طوابق وأحياناً خمس أو ست طوابق وتشبه المنابر فى بنيانها وبها طاقات لدخول الضوء والتهوية وكانت تتخذ الأدوار العليا للسكن ، أما السفلى فكانت تستخدم كمخازن لحفظ المؤن والمواد الغذائية المختلفة .

الجوامع والمساجد

ويتجلى ازدهار الاقتصاد المصرى فى الدولة الفاطمية فى تلك المجموعة الكبيرة من المساجد والجوامع التى تم إنشاؤها زمن هذه الدولة ويأتى على رأسها : الجامع الأزهر : وهو أول جامع للدولة الفاطمية فى مصر وقد سبق أن تحدثنا عن نشأته وقد وضع أساسه سنة ٣٥٩ هـ وقد اهتم به الخلفاء الفاطميون فيذكر أن الخليفة الحاكم بأمر الله اهتم به وزاد فيه وأحدث فيه بعض التعديلات ووقف عليه أوقافاً كثيرة حتى يضمن تدبير مورد مالى ثابت للإنفاق عليه حتى يستمر فى أداء وظيفته كجامع وجامعة .

وقد أوقف عليه كثيراً من الأراضى الزراعية والعقارات والمبانى والدور والقياسر وغير ذلك وقد تم تجديد الجامع فى عهد الخليفة المستنصر أيضاً ثم جدده الخليفة الحافظ لدين الله وأنشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربى عرفت بمقصورة فاطمة يعنى فاطمة الزهراء وقد تعاقبت الزيادات على الجامع طوال

العصر الفاطمى وتحول الجامع الأزهر من مسجد للصلاة ونشر المذهب الشيعى إلى مركز من أهم المراكز العلمية فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت . ومن الجوامع الفخمة جامع القرافة الذى شيد للسيدة المعزية زوجة المعز لدين الله وأم الخليفة العزيز بالله فى سنة ٣٦٦ هـ وقد اهتمت بأمر هذا الجامع وأسندت أمر تنفيذه إلى الحسن بن عبدالعزيز الفارسى المحتسب الذى استقدم المزوقين من البصرة كما استقدم أمهر الصناع الذين استخدموا أجود الأصباغ وقد جاء هذا الجامع تحفة فنية تشهد على عظمة البناء فى العصر الفاطمى وقد ألحق به بستان جميل وصهريج للمياه وحمام وبئر وكان قبلة لأهل مصر يقصدونه لقضاء أوقات النزهة كما يقصده الفقهاء لعقد حلقات المناقشة كما كان ملاذاً للمسافرين واخوان السبيل يقصدونه لقضاء ليلتهم .

وقد تزايدت حركة التشييد والبناء فى عهد الحاكم بأمر الله فمن الجوامع المشهورة التى تم تشييدها زمن هذا الخليفة جامع راشدة الذى بدء فى تشييده سنة ٣٩٣هـ ومن الجوامع المشهورة فى عهد الحاكم جمع المقس والذى شيده الخليفة على شاطئ نيل مصر بمنطقة المقس وأوقف عليه أموالاً كثيرة للإنفاق على عمارته وفرشه وترميمه .

ومن الجوامع التى بنيت فى العصر الفاطمى الجامع الأقمر الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام الله ووزيره المأمون البطائحى ويعد من أجمل المنشآت المعمارية وكان أمام قصر الخليفة الآمر

واكتمل تشييده سنة ٥١٩ هـ وقد أوقف عليه أوقافاً ويعد من مفاخر العمارة الفاطمية ويمتاز بأنه من المساجد المعلقة إذ بنى تحته حوانيت وألحق به حوضاً لشرب الدواب ، وكانت واجهته الغربية غنية بأجمل أنواع الزخارف كما تفرد باشتماله على طاقات وعقود ومقرنصات تنسب إلى الطراز الفارسى ، قائمة على أعمدة من الرخام ، أما السقف فكان يشتمل على عدد كبير من القبوات صغيرة الحجم وكانت الظاهرة المميزة فى هذا المسجد هى المحراب المقرنس .

ومن الجوامع الفاطمية أيضاً جامع الصالح طلائع الذى بناه الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله وكان يشير إلى تقدم فن البناء الفاطمى إذ اشتمل على مميزات معمارية فواجهاته كانت كلها من الحجر ، وواجته الغربية كان لا نظير لها فى جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها وكانت الزخارف والنقوش فى هذا المسجد تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقى فى ذلك العهد كما أن بابه الرئيسى يعتبر أقدم باب نحاسى فى مصر وقد بنى الصالح لهذا المسجد صهريجاً عظيماً يمتلئ زمن فيضان النيل .

إلى جانب القصور والمساجد التى تدل على ازدهار العمارة الفاطمية وتقدمها فقد تقدمت الفنون وكان للوزراء دور

كبير فى ذلك ، فقيل أنه ظهر فى عهد العزيز ووزيره ابن كلس أنواع جديدة من الأقمشة مثل العتابى الذى اشتهرت بــه بغــداد والسقلاطون الذى عرفه الروم .

وفى وزارة الجرجرائى تم ترميم قبة الــصخرة وتجديــد فسيفسائها على يد أحد الفنانين المصريين . وتقــدمت العمــارة الفاطمية وازدهرت فى عهد بدر الجمالى الذى شــجع العمــران ومن ضمن إنشاءاته تجديد جامع العطارين بالإسكندرية وإنــشاء جامع المقياس والجامع العتيق بإسنا ، ومسجد أميــر الجيــوش بأعلى جبل المقطم ، ومشهد الإمام الحسين بعسقلان ، كما عمر الجامع الطولونى والمسجد النفيس ومــسجد العمــرى بالمحلــة الكبرى.

ومن أهم الآثار الفاطمية من عهد بدر الأبــواب الثلاثــة الكبرى لسور القاهرة وهى باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح التى تشهد بعظمة العمارة الفاطمية وهذه الأبواب من عمل ثلاثة أخوة من مدينة الرها ، ويظهر فيها أصــول الفــن البيزنطــى ، ومسجد أمير الجيوش بالمقطم الذى اشتمل رغم صــغره علــى مميزات معمارية نادرة فقد دعمت الوجهات بــدعامات مربعــة انتهت من أعلاها بقبات صغيرة اقتصر ظهورهــا علــى هــذا المسجد ، أما قبة المحراب فقد امتازت كتابتها بأن حروفها مفرغة بدوائر ولعلها الوحيدة بين الكتابات الكوفية.

ومنذ عهد بدر الجمالى ابتداء ظهور عناصر وتطــورات

معمارية هامة، أهمها إحلال الحجر مكان الآجر ، واستعمال العقد المسمى (بالفارسى) والذى ظهر أولاً فى تربة الجمالى حـوالى سنة ٤٨٣ هـ ، كما استعمل المقرنص لأول مـرة ، وانتـشرت الزخرفة فى وجهات المساجد ، وتهذبت المنارة ، وارتفعت القبة ونقش داخلها وتطورت من بساطتها إلى تضليع ظاهرها . وقـد أكثر الوزراء بعد بدر من البناء و التشييد فقام الأفـضل ببنـاء الكثير من المساجد والجوامع والقصور ، وعمر جزيرة الروضة وكان المأمون أيضاً يعتبر من أنشط الوزراء وأكثـرهم اهتمامـاً بالعمارة فأقام العديد من المساجد والمشاهد والمناظر ، وبلغ مـن تقدم الفنون فى عهد الأفضل وخاصة صناعة التماثيل ، أن وجد بين زخائره دكة من العاج والأبنوس محلاة بالفضة عليها قطعـة من العنبر مثمنة الشكل فى أعلاها تمثال طائر من الذهب أرجله من المرجان ومنقاره من الزمرد وعيناه من الياقوت . كما كان له تمثال من العنبر على قدر جسمه ليضع عليه ملابسه ، أما فى مجلس شرابه فقد وضعت ثمانية تماثيل لثمان جوار ، أربع بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر ، وكـان الأفـضل إذا دخـل المجلس نكسن رؤسهن إجلالاً له حتى إذا أخذ مكانـه اسـتوين قائمات ولا شك أن الطريقة التى كانت تتحرك بها هذه التماثيـل تدل على براعة ورسوخ قدم فى الفن .

ومن المنشآت الهامة للوزراء الفاطميين ، البرج الذى بناه ضرغام وزير العاضد عند باب البحر فى الإسكندرية عرف ببرج ضرغام وكان لهذا البرج دور هام فى الدفاع عن الإسكندرية ضد المغيرين .

٩- الحيـــاه الإجتماعيــــة

١- موقف الفاطميين من أهل السنة .

٢- سياسة الخلفاء الفاطميين تجاه أهل الذمة .

٣- عناصر المجتمع وأثرها في الحياة العامة .

٤- بعض مظاهر الحياه الإجتماعية في العصر الفاطمى .

٥- الأعياد والأحتفالات القبطية .

٦- الطعام والشراب .

٧- المرأة

٨- سقوط الخلافة الفاطمية

المصادر والمراجع

موقف الفاطميين من أهل السنة

كان أهل السنة يُكونون السواد الأعظم من المصريين المسلمين بعد أن أقام الفاطميون خلافتهم فى مصر، واستطاع دعاتهم أن ينشروا المذهب الفاطمى بين عدد من المصريين، كانوا عوناً لهم على فتح مصر، فدخل جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الأسكندرية سنة ٣٥٨هـ دون مقاومة، وكتب أماناً أعلنه للمصرين تعهد فيه باحترام المذهب السنى، أى المذهب الدينى للمصريين، كما تعهد بتأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم.

لم يلتزم الفاطميون بعد أن انتقل المعز إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ بكتاب الأمان الذى أعلنه جوهر الصقلى للمصرين. بل عملوا على تحويل المصريين إلى المذهب الشيعى، وقد اتبعوا لذلك عدة وسائل منها: إسناد المناصب العليا وخاصة منصب القضاء إلى الشيعيين، واتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية وهى مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون والجامع الأزهر.

كما اهتم الفاطميون بتعيين أحد كبار المتفقهين فى مذهب الشيعة للقيام بنشر الدعوة الشيعة وكان يعرف بداعى الدعاة وكانت منزلة هذا الداعى تلى منزلة قاضى القضاة وكان يعاونه إثنا عشر نقيبا ونواب فى سائر البلاد.

كذلك اهتم الفاطميون بإظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالآذان بحى على خير العمل والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء، وعيد الغدير المعروف بغدير خم وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة.

أدى إحياء هذه الشعائر الشيعية إلى سخط المصرين السنيين، لما كانت تؤدى إليه من اعتداءات الشعيين والمغاربة عليهم فقد حدث عند الاحتفال بعيد غدير خم "ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ"، أن قام المغاربة بإثارة الشغب والاضطراب، فاضطر جوهر إلى الخروج بنفسه ليمنعهم من الاعتداء على أموال الأهالى.

كذلك فقد أرغم الشيعيون المصريين السنيين على مشاركتهم فى إظهار شعائرهم فى بعض الأحيان، أراد المصريون السنيون أن يتخذوا مناسبة يحتفلوا بها، وذلك كيداً فى الشيعة فاحتفلوا فى سنة ٣٦٢هـ باليوم الذى دخل فيه رسول الله غار ثور هو وأبو بكر الصديق، وقالوا أنه يوافق يوم ٢٦ من ذى الحجة وبالغوا فى هذا اليوم بمظاهر الاحتفالات وقد رأت الحكومة الفاطمية فى عهد المعز ألا تمنع أهل السنة من إحياء هذا العيد حتى لا يثير غضبهم.

لم يكتف الشيعة بإحياء الشعائر الشيعية فقط بل أدى انحياز الفاطميين إلى المغاربة والاعتماد عليهم فى إدارة شئون الدولة إلى استغلال هؤلاء لنفوذهم فى إلحاق الأذى بالمصرين فقاموا

بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور فرفع المصريون شكواهم إلى الخليفة المعز الذى أصدر أوامره إلى المغاربة بإخلاء هذه الدور والانتقال إلى نواحى عين شمس.

ولما ولى العزيز بالله الخلافة سنة ٣٦٥هـ اهتم بنشر المذهب الشيعى وقد حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب، كما اقتصرت المناصب الهامة على الشيعيين مما دفع الكثير من الموظفين السنيين إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمى. ولما ولى الحاكم بأمر الله أصدر كثير من الأوامر التى تدل على التعصب الشديد للمذهب الفاطمى، فأمر فى سنة ٣٩٥هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع فصدرت الأوامر إلى العمال فى جميع الأنحاء لتنفيذ ذلك.

ثم خفف الحاكم من مظاهر التعصب للمذهب الفاطمى إرضاءاً لرعاياه السنيين فأبطل فى سنة ٣٩٧هـ بعض ما أمر به سابقاً من لعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة وأمر بمحو ما نقش فى لعنهم، كما منع المؤذنين من إضافة عبارة "حى على خير العمل إلى الآذان، وسمح الحاكم بإقامة صلاة الضحى وصلاة التراويح بعد أن منُعت بأمره عدة سنوات وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب السنى.

كذلك أصدر الحاكم مرسوماً سنة ٣٩٨هـ وفق فيه بين السنيين والشيعيين وأطلق لكل فريق منهم الحرية فى أداء شعائره

الدينية. وفى هذا المرسوم أجاز للشيعين صوم شهر رمضان دون أن يتقيدوا برؤية الهلال، كما نهى الحاكم عن سب الصحابة إلى غير ذلك. وقد استمرت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم نحو ثلاث سنوات فقد تبدلت سنة ٤٠١هـ وأمر الحاكم مرة أخرى بإقامة الآذان "بحى على خير العمل". كما أبطل صلاة الضحى وصلاة التراويح.

تميز عهد الخليفة الظاهر والمستنصر بالتسامح نحو السنيين فتمتعوا بمطلق الحرية فى أداء شعائرهم، كما أهملت بعض مظاهر التعصب الشيعى، ولما ولى الوزارة بدر الجمالى فى أواخر عهد الخليفة المستنصر، وكان متعصباً للمذهب الشيعى أظهر روح العداء والكراهية تجاه المذهب السنى وأمر بإعادة بعض المظاهر الشيعية.

وعلى الرغم من حرص الفاطميين وتعصبهم الشديد لمذهبهم ورغبتهم فى نشر هذا المذهب بين أهالى البلاد فإن الدولة الفاطمية لم تنجح تماماً فى تحقيق أهدافها فى مصر فقد ظل المذهب السنى محتفظاً بقوته رغم تحول بعض المصرين إلى المذهب الفاطمى رغبة فى تولى بعض الوظائف أو خوفاً من تطبيق القوانين التى فرضها الفاطميون على مخالفيهم فى المذهب – ويرجع السبب فى احتفاظ المذهب السنى بقوته فى مصر إلى اتخاذ حاضره جديدة هى القاهرة. لتكون رمزاً للفاطميين بعيداً عن الفسطاط حاضرة المصرين السنيين، وقد أجاز الفاطميون

لأهل السنة إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعى وأحمد بن حنبل تدرس فى دولتهم، أما مذهب الإمام أبى حنفية فلم ينتشر فى مصر لأنه مذهب العباسيين.

سياسة الخلفاء الفاطميين تجاه أهل الذمة:

اختلفت سياسة الخفاء الفاطميين تجاه أهل الذمة عنها تجاه أهل السنة، فقد كان الفاطميون فى حاجة إلى المال وإلى إدارة منظمة يقوم بها موظفون أكفاء ومخلصون يقومون بجباية الضرائب، ويعملون على إنماء الثروة الاقتصادية، فلما أدرك الفاطميون أنه من المستحيل الاعتماد على السنيين فى مصر أنصار الدولة العباسية، قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم التسامح فى كثير من الأحيان، كما استخدموهم فى أهم شئون الدولة وكان النصارى يجمعون بين الكفاءة فى إدارة الشئون المالية وبين المهارة فى اتقان الصناعة فنالوا فى هذا العهد الثروة والمكانة وقد دفعت رغبة الكثيرين من الذميين فى الحصول على الهبات والعطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى.

استعان المعز لدين الله بكثير من الأطباء اليهود، كما استعان ببعض اليهود فى إدارة شئون الدولة مثل يعقوب بن كِلَّس الذى أسند إليه المعز بعض دواوين دولته وارتقى فى المناصب حتى أصبح وزيراً للعزيز بن المعز لدين الله.

كذلك اتسم عهد العزيز بالله بالتسامح مع النصارى وكان لزواجه من مسيحية أثر كبير في مبالغته في التسامح معهم حتى أنه شاركهم في أعيادهم الدينية كما قام العزيز بتعيين شقيقي زوجته في أرقى مناصب الكنيسة كان من أثر هذه السياسة التي اتبعها العزيز نحو أهل الذمة أن ازداد نفوذهم في أيامه. فأصبح بدواوين الدولة كثير من كتابهم وخاصة بعد أن عين العزيز يهودياً واليا على بلاد الشام، وعين آخر نصرانياً الشئون الإدارية. وقد أظهر هذان الشخصان المحاباة والتحيز فقربوا إليهم أهل الذمة وعينوهم في مناصب الدولة مما أدى إلى استياء المصرين السنيين فرفعوا شكواهم إلى الخليفة العزيز، الذى تبين له استئثار الذميين بمعظم السلطات فأمر بالقبض على هذين الشخصين وغيرهما من الموظفين الذميين وأعاد الكتاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين.

اختلفت سياسة الحاكم بأمر الله الفاطمى عن سياسة المعز والعزيز وقد اتسمت هذه السياسة بالشدة تجاه أهل الذمة، فبعد أن ولى الخلافة تقدم إليه الكتاميون الذين قامت على أكتافهم الخلافة الفاطمية وطلبوا عزل عيسى بن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمار فأجابهم الخليفة إلى طلبهم واسند إلى ابن نسطورس ديوان الخاص وقد اتهم بالعبث بأموال الدولة فقبض عليه ابن عمار وقتله.

بدأت سياسة الشدة التي اتخذها الحاكم تجاه أهل الذمة سنة ٣٩٣هـ وقد حمله على اتباع هذه السياسة المصريون المسلمون الذين غضبوا لاستئثار أهل الذمة بالسلطة والمناصب والثروات. وقد تجلت سياسة الشدة ضد أهل الذمة سنة ٣٩٥هـ فحتم عليهم لبس أزياء وملابس خاصة ومن ذلك "أن الحاكم أمر النصارى أن يعلقوا فى أعناقهم الصلبان وأمر بأن يلبس اليهود العمائم السود إلى غير ذلك". ثم أمر الحاكم بعد ذلك بهدم بعض الكنائس فى القاهرة وأمر بإلغاء بعض الأعياد النصرانية مثل الاحتفال بالنوروز على شواطئ النيل. كما أمر بإلغاء جميع الأحباس "الأوقاف" المرصودة على الكنائس والأديرة وضمت إلى الديوان.

أدت سياسة الشدة والاضطهاد التى انتهجها الحاكم مع الذميين إلى دخول كثير منهم فى الإسلام. كما هاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة، وأجاز لهم الحاكم هذه الهجرة كما اذن للمهاجرين منهم بحمل أموالهم.

لم يستمر الحاكم بأمر الله على سياسة الشدة فقد غير هذه السياسة وأصدر سنة ٤١١هـ - عدة مراسيم بإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة. كما سمح للمسيحيين بتجديد الكنائس ومنحهم أماناً جاء فيه "أنهم آمنون على نفوسهم ودمائهم وأولادهم وأموالهم وأملاكهم وأحوالهم".

تميز عهد الخليفة الظاهر بالتسامح نحو أهل الذمة فقد عمل هذا الخليفة على اكتساب عطفهم فأصدر بياناً أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم وأنه لا إكراه فى الدين وأن من أراد الدخول فى الإسلام عن اختيار فله ذلك، ومن أراد البقاء على دينه فله الحرية أيضاً.

استمرت سياسة التسامح نحو أهل الذمة منذ ذلك الوقت، ولم يظهر الشعور العدائى نحوهم إلا فى فترات قصيرة وخاصة حين يتولى أحدهم منصباً كبيراً كما حدث فى أوائل عهد المستنصر بالله الفاطمى فقد ارتفع شأن أبى سعد إبراهيم بن سهل اليهودى مما أدى إلى حقد الوزير فخر الدولة الفلاحى عليه. كما أن ابن سهل اليهودى تحيز لليهود فتولوا فى أيامه كثيراً من مناصب الدولة مما جعل المسلمين يغضبون منه، فاستغل الوزير ابن يوسف الفلاحى ذلك للتخلص منه وما لبث أن قُتل سنة ٤٣٩هـ.

وأظهر الخليفة المستنصر العطف والتسامح نحو أهل الذمة على الرغم من تذمر المسلمين من إسناد بعض مناصب الدولة لليهود فى عهده.

عناصر المجتمع المصرى

وأثرها في الحياة العامة

عندما اتخذ الفاطميون مصراً مقراً لخلافتهم ساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم ، فصار جيشهم فى عهد المعز يتألف من قبائل كتامة وزويلة وبعض طوائف البربر ومن الصقالبة. ثم استخدم العزيز الديلم والأتراك وجعلهم خاصته ، وقد أدت هذه السياسة إلى قيام التنافس بين المغاربة والأتراك ، وظل الحال على ذلك ، إلى أن ولى الحاكم بأمر الله الخلافة فقرب إليه الكتاميين فى بداية عهده ثم انحرف عنهم واعتمد فى جيشه على الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين ، وحذا حذوه ابنه الظاهر فى الاعتماد على الأتراك ، على حين استكثرت أمه من العبيد ، حتى بلغ عددهم خمسين ألفا . وظهر فى أيام هذا الخليفة التنافس والتشاحن ين هاتين الطائفتين مما كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية.

وفيما يلى نورد بنذة عن كل عنصر من عناصر هذا المجتمع .

١- المغاربة :

قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم ، وخاصة طائفة الكتاميين وهم عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر ، وقد كانت هذه الطائفة هى المسئولة عن كثير من حوادث الشغب

بالبلاد ، وذلك لأن المغاربة كانوا شيعة متزمتين ، شجعتهم قوتهم الحربية ومساندة الخلفاء الفاطميين لهم على اتيان كثير من حوادث الشغب والسلب والنهب ، الأمر الذى أدى إلى كثير من المصادمات بينهم وبين المصريين وبقية الطوائف .

وقد قام المغاربة بنهب أملاك الأهالى في كثيرا من الاحيان ، وقد هب هؤلاء من سنيين وشيعيين وغير مسلمين يدفعون عن أنفسهم هذا العدوان الذى كان غرضه السلب والنهب .

وقد حدث فى عام ٣٦٠ ه (٩٧٢ م) أن اعتدى المغاربة على بعض أحياء مصر بالسلب والنهب، فثار الأهالى ، ونشب قتال بينهم وبين المغاربة حتى تدخل جوهر وعوض الناس عما سلب منهم.

وفى عام ٣٦٣ ه (٩٧٤م) احتل المغاربة دور المصريين وأجلوا سكانها عنها ، الأمر الذى جعل الأهالى يسغيثون بالخليفة المعز ، الذى أمر المغاربة بإخلاء الدور التى اغتصبوها من الأهالى وبنى لهم مساكن قرب عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر فى أمورهم. وفى سنة ٣٨٦ ه (٩٩٦م) فرض المغاربة على الخليفة الحاكم بأمر الله – وكان لا يزال صغير السن – تعيين زعيمهم ابن عمار وزيراً ، فرضخ الحاكم لطلبهم ، وتولى ابن عمار الوزارة ليجزل العطاء للمغاربة ، الأمر الذى قوى من شوكتهم ودفعهم إلى الشطط فى تصرفاتهم.

وقد ظهر سوء إدارة ابن عمار فى كثير من الأعمال ، وقد اعتمد على أحداث المغاربة ليقضى بذلك على نفوذ الحزب التركى ، وكانت نتيجة هذه السياسة ازدياد جرأة المغاربة ، فعاثوا فساداً فى طرقات القاهرة ونهبوا المتاجر واشتبكوا مع الأتراك فى بعض المعارك التى تطورت إلى قتال بين طائفتين انتهى الأمر فيه بهزيمة المغاربة. وهرب ابن عمار إلى الصحراء وحل محله رجوان وقد ضعف نفوذ الكتاميين منذ ذلك الوقت حتى صاروا من عامة الرعية فى عهد المستنصر بالله الفاطمى بعد أن كانوا من أكابر رجال الدولة .

٢- السودانيون :

بدأ ظهورهم فى مصر منذ أيام كافور الإخشيدى ، وكانوا يجلبون من الجنوب كجنود مرتزقة . واستعان بهم الحاكم بأمر الله على المصريين والسنيين بالفسطاط ، فهاجموا أرجاء تلك المدينة واقتحموا بيوتها وحماماتها ونهبوا أسواقها.

ويرجع السبب فى كثرة السودانيين إلى أن أم المستنصر كانت جارية سوداء لأبى سعد التسترى اليهودى . فلما ولى المستنصر الخلافة ومات الوزير صفى الدين الجرجرائى وحكمت والدة المستنصر على الدولة استوزرت سيدها أبا العباس ، ووزر المستنصر الفلاحى الذى اختلف مع التسترى ، فاستمال الأتراك وزاد فى واجباتهم حتى قتلوا أبا سعد . فغضبت لذلك أم

المستنصر وقتلت أبا الفلاحى وأسرعت فى شراء العبيد السود وجعلتهم طائفة لها واستكثرت منهم ، وكرهت الأتـراك ، فلمـا وزر أبو البركات الجرجرائى أمرته أن يغرى العبيـد بـالأتراك فخاف سوء العاقبة فلـم يطاوعهـا ، فـصرفته عـن الـوزارة واستخدمت وزيرها اليازورى فأمرته بذلك ، فلم يقبل منها وساس الأمور أحسن سياسة إلى أن قتل ووزر بعده البابلى وأمرته بذلك فأخذ فى أسباب ما أمرته به فتغيرت نياتهم وصار فى قلب كـل طائفة من الأخرى غضب، فكانت بداية الحرب.

٣- الأتـــراك.

ظهر أمرهم فى عهد العزيز بعد أن اسكثر منهم وقـربهم إليه وأصبحوا منذ ذلك الوقت عنصراً هاماً فى الجيش الفاطمى. وقد ثار الجند الأتراك فى عهد الحاكم حين أبطـل ابـن عمـار عطياتهم وبالغ فى محاباة المغاربة . وقد وجد الأتـراك منافـسة شديدة من السودانيين فى عهد المستنصر ، فنشبت بين الفـريقين معارك عنيفة ، وقف فيها الجند المغاربة إلى جانـب الأتـراك ، فأوقعوا الهزيمة بالسودانيين رغم المساعدات التى قدمتها لهـم أم المستنصر ، واستقر خمسة عشر ألف منهم بالـصعيد ، حيـث عاثوا فى البلاد فساداً ، وأخذوا يشنون هجمات متوالية عن طريق البر والنهر على القاهرة رغبة فى الاستيلاء عليها وطرد أعدائهم الأتراك منها.

وكان يتولى قيادة الأتراك فى أوائل عهد المستنصر ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى ، وقد ازداد نفوذهم فى القاهرة بعد طرد السودانيين إلى الصعيد ، وسرعان ما استفحل أمرهم وأخذوا يطالبون الخليفة بزيادة مرتباتهم سنة ٤٦٠هـ، فزادت أعطياتهم حتى بلغت أربعمائة ألف دينار فى كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار ، ولم يقنع الأتراك بذلك بل واصلوا إلحاحهم فى زيادة مخصصاتهم ، ولما أظهر المستنصر عجزه عن تلبية طلباتهم الزموه ببيع ذخائره ، فأخرجها إليهم وقوموها على أنفسهم بأبخس الأثمان.

ولم يكد ناصر الدولة يفرغ من التغلب على السودانيين حتى كشف القناع عن غرضه الحقيقى فجاهر بالإساءة للمستنصر ، واستبد بالأمور دون الأتراك ، كما استأثر بأموالهم ، مما جعلهم يسعون إلى الخلاص منه فرفعوا شكاياتهم من تصرفاته إلى خطير الملك وزير المستنصر ووالى المستنصر نفسه وطلبوا من المستنصر أن يخرجه من مصر . فبعث إليه المستنصر يأمره بالرحيل عنها ، فخرج ناصر الدولة إلى الجيزة ، ثم ما لبث أن عاد إلى دار القائد تاج الملوك تازى بالقاهرة وقدم إليه فروض الطاعة وطلب منه أن يعاونه على التخلص من خطير الملك والدكز – أحد أمراء الأتراك – لاعتقاده بأنهما كانا السبب فى حمل الأتراك على مناهضة واضطهاد المستنصر له . فوعده تاج الملوك بتنفيذ رغبته، وما لبث أن تمكن من قتل الوزير خطير

الملك ، أما الدكز فق لاذ بقصر المستنصر واستجار بـه وأخـذ يحرضه على قتال ناصر الدولة ، فلقى هذا القـول قبـولاً مـن الخليفة، فخرج على رأس فريق كبير من جنده وألحق بناصـر الدولة هزيمة ساحقة ، فمضى منهزماً فى نفر قليل من أصـحابه إلى إقليم البحيرة حيث انضم إليه فريق من الأعراب.

وعلى الرغم من أن الخليفة المستنصر قد أظهر بعضاً من الجرأة خلال هذه الإضطرابات وتمكن من هزيمة ناصر الدولـة إلا أن سلطته لم تكن لتتعدى فى الواقع حدود عاصمته ، فبينمـا كان الجنود السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلـى كان نحو أربعمين ألف فارس من قبيلة بواته والأعـراب تحـت زعامة ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى ينهبون بـلاده ويحطمون الجسور والقنوات مما يترتب عليـه انقطـاع المؤن والإمدادات عن القاهرة والفسطاط.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن ناصر الدولة بعـث فى سنة ٤٦٢هـ إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولاً من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكراً ليقيم الدعوة العباسية على أن تؤول إليه السيادة على مصر ، فرحب ألب أرسلان بذلك غير أنه ما لبث أن انشغل بمحاربة الروم عـن المسير إلـى دمشق ثم إلى مصر.

ولما بلغ المستنصر أن ناصر الدولة أرسل إلـى ألـب أرسلان يدعوه إلى مصر جهز إليه جنداً من الأتراك لمحاربتـه

بالبحيرة فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة ، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الإسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الوجه البحرى وحال دون وصول القوات إلى القاهرة.

ومما زاد الحالة سوءاً المجاعة التى حدثت فى عام ٤٥٧ هـ نتيجة لانخفاض النيل واستمرت سبع سنين.

ونتيجة لهذه المجاعة فقد رأى الجند الأتراك بعد ما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد بسبب المجاعة أن يصالحوا ابن حمدان على أن يظل مقيماً بالبحيرة ويحمل إليه مبلغ مفرد من المال ويكون تاج الملوك تازى نائباً له ، فرضى بذلك وأرسل الغلال إلى مصر مما أدى إلى توفر القوت الضرورى للأهالى .

على أن تاج الملوك تازى سرعان ما نقض الصلح واستبد بالأمور فى القاهرة وصار لا يرسل لابن حمدان إلا القليل من الأموال ، فاستاء من ذلك ابن حمدان وسار فى جمع من العربان إلى الجيزة حيث تمكن من القبض على تازى ، كما أطلق لجنده العنان فى الفسطاط فنهبوا دورها وأشعلوا فيها النيران ولما استفحل أمرهم حاربهم المستنصر وانتصر عليهم وفروا إلى البحيرة وظلوا هناك على الرغم من هزيمتهم يعملون على إضعاف شأن الخليفة الفاطمى . وحذفوا فى سنة ٤٦٤ هـ اسم المستنصر من الخطب فى الوجه البحرى وبعث ناصر الدولة إلى الخليفة القائم العباسى ببغداد يلتمس الخلع ، ثم قدم إلى القاهرة على رأس جيش كبير وتولى الحكم فيها وامتنع المستنصر بقصره

وبالغ ناصر الدولة فى إهانة الخليفة وأظهر ميله للمذهب السنى واضطر كثير من (أقارب) المستنصر وأولاده إلى النزوح إلى المغرب والعراق.

وعندما شعر الأتراك باستبداد ناصر الدولة ومحاولته تقويض خلافة الفاطميين وإقامة الدولة العباسية مكانها دبروا مؤامرة لاغتياله فانقضوا عليه بسيوفهم ذات ليل وتخلصوا منه ومن كل أفراد أسرة بنى حمدان.

من كل ذلك يتضح لنا الدور الكبير الذى لعبه الأتراك فى تاريخ مصر الفاطمية وأثرهم على الحياة العامة.

٤- الأرمن

لم تنته الفوضى والاضطرابات التى انتابت مصر بقتل ناصر الدولة ابن حمدان بل سرعان ما ازداد نفوذ الذكز وأتباعه من الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر حتى ضاق بهم ذرعاً، واضطر فى سنة ٤٦٦ هـ إلى أن يبعث إلى بدر الجمالى (نائب عكا) يطلب إليه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته وإصلاح ما فسد من أمور مصر، فاشترط عليه أن يحضر من يختاره من عساكر الشام ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر، فوافق المستنصر على طلبه.

وبعد أن أتم بدر الجمالى إعداد عدته للرحيل إلى مصر أبحر من عكا ومعه جند كثير من الأرمن وغيرهم، ونزل فى

دمياط ، وعندما وصل إلى قليوب أرسل إلى المستنصر يشترط عليه قتل بلدكوز مقابل دخوله القاهرة ، فوافق الخليفة على طلبه.

وعندما دخل بدر الجمالى مدينة القاهرة على رأس جنده الأرمن استقبله الجند الأتراك استقبالاً ودياً لأنهم لا يدرون شيئاً عن نواياه ، ولم يكد يشرق صبح اليوم التالى حتى تقدم ضباطه حاملين رؤوس قواد الأتراك الذين عهد إليهم بقتلهم وبذلك تمهدت له الأمور .

وقد رحب الخليفة المستنصر ببدر الجمالى وقلده وزارة السيف والقلم كما زاد فى ألقابه : السيد الأجل أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين.

وعرف جنود بدر الجمالى بالمشارقة تمييزاً لهم عن المغاربة ، وتفانوا فى الإخلاص له ، واحتفظ الكثيرون منهم بدياناتهم المسيحية ، وآثروا البقاء فى مصر لصعوبة الحياة فى أوطانهم .

وبعد أن نجح بدر الجمالى فى إعادة الأمور إلى نصابها وإعادة الأمن والطمأنينة إلى نفوس الناس فى العاصمة اتجه نحو الوجه البحرى فأخضع بنى بواتة كما توجه إلى دمياط وقتل جماعة المفسدين ، ثم أرسل إلى الصعيد ، فى سنة ٣٦٩ هـ حيث الجند السودانيون وجماعة من الأعراب ، فانقض عليهم وأفنى أكثرهم وأعاد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان.

وعلى الرغم من أن بدر الجمالى كان ناجحاً فى إدارة البلاد إلا أن مما يؤخذ عليه انتهازه فرصة استبداده بالسلطة وعهده إلى ابنه الأفضل بالوزارة من بعده ، فلما توفى بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ خلفه الأفضل فى منصبه وظل المستنصر فى عهد وزارته لا سلطة له حتى مات بالقاهرة فى أول شوال ٤٨٧ هـ.

وكان للأرمن دور هام كذلك فى أيام الخليفة الحافظ . فقد قدم بهرام الأرمنى والى الغربية فى عهد الخليفة الحافظ للقاهرة وحاصرها يوماً ، فرأى الخليفة أن يوليه الوزارة وأشار عليه بعض خاصته أن يعدل عن هذا الرأى فلم يصغ الحافظ لقول النصحاء ، وقلد بهرام الوزارة على الرغم من نفور الناس ، وسرعان ما تزايد نفوذ بهرام فطلب من الخليفة أن يسمح له بإحضار أهله فوافقه الخليفة على ذلك ، وما لبث أن بلغ عدد الأرمن ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير فسلكوا مع المسلمين مسلكاً عدائياً وصادروا أموالهم وجاروا عليهم وبنوا كثيرا من الكنائس والأديرة .

ولما زاد اضطهاد الأرمن للمسلمين خاصة ما لقيه أهالى قوص من الباسك أخا بهرام لم يجد المسلمين بدا من شكوى بهرام .

ولما نفد صبر المسلمين بعث الأمراء إلى رضوان بن الولخشى والى الغربية يستحثونه على المسير إليهم وتخليصهم مما هم فيه من كرب وبلاء.

وعندما وصلت استغاثة الأمراء إلى رضوان اتجهت آماله إلى الوزارة ، وصعد المنبر في سخا وخطب في الناس خطبة بليغة حضهم فيها على الجهاد ، ثم جمع ثلاثون ألف رجل سار بهم إلى القاهرة . فلما دنا رضوان من المدينة خرج بهرام على رأس جيش كبير لصد هجماته ، ولما تقارب الجيشان أمر رضوان برفع المصاحف على رؤوس الرماح ، فلم يكن من عساكر المسلمين إلى أن اعتزلوا بهرام وانضموا تحت لواء رضوان ، وقيل بأن هذا الأمر كان أثر اتفاق سابق بين المسلمين من جند بهرام وجند رضوان.

ولما علم بهرام بحقيقة الحال أرسل إلى الحافظ بعلمه بكل ما حدث ، فأمره الخليفة بالمسير إلى ولاية قوص بالوجه القبلى والإقامة مع أخيه حتى يقرر ما ينبغى اتباعه فى هذا الأمر فعاد بهرام إلى القاهرة، وأخذ معه ما خف حمله وغلا ثمنه ، وأتاح مسير بهرام فرصة لنهب دور الأرمن فى حى الحسينية وبعض كنائسهم وثار أهالى قوص فى ذلك الوقت ، وقتلوا الباسك أخا بهرام وجعلوا فى رجله كلباً ميتاً ، ورموا جثته فى صندوق القمامة.

وعندما وصل بهرام إلى قوص وعلم بقتل أخيه ثار له ونهب المدينة وقتل الكثير من أهلها ثم رحل إلى أسوان وأقام بالموضع الحصين المعروف بالأديرة البيض.

أما رضوان فقد خلا له الجو بالقاهرة وتقلد الوزارة فى الحادى عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٣٤ هـ وخلع عليه لقب الأفضل ، وكان أول ما بدأ به إيفاد أخيه ناصر الدين على رأس جيش كثيف إلى الأديرة البيض لقتال بهرام فى هذه الجهة ، غير أنه لم يدر بين الفريقين قتال ، وتم الاتفاق على أن يبقى بهرام فى هذه الجهة وأن يطلق ما كان معه من الجند ليعودوا إلى القاهرة ومنها يسرحون إلى بلادهم ، ولكن العداء ظل مستحكماً بين المسلمين والأرمن وأنه فى عام ٥٣٢ هـ شدد رضوان على أعوان بهرام واستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم ، وعمل على إبادتهم. ويبدو أن هذه الأعمال لم ترض الخليفة لأنه بعث فى سنة ٥٣٣ هـ من أحضر بهرام ، وأسكنه فى قصره ، وأحله من نفسه محل الإكرام والتعظيم . وبموت بهرام انتهى أخيراً الصراع بينه وبين رضوان.

وبوجه عام نجد أن معاملة الفاطميين لأهل الذمة تنطوى على كثير من العطف والرعاية والمحاباة فى كثير من الأحايين . وما كان الاضطهاد الذى قام به الحاكم إزاءهم ، إلا حلقة من سلسلة حلقات الظلم الذى حاق بالمصريين .

وقد أدى التطاحن بين عناصر المجتمع المصرى المختلفة إلى تخريب مدن الدولة الفاطمية.

ونستنتج من هذا الصراع بين عناصر المجتمع المصرى المختلفة أن تعدد عناصر المجتمع المصرى – مع محاباة كل

خليفة أو عدد من الخلفاء لعنصر معين – لعب دوراً خطيراً فى إنهاء الدولة الفاطمية وزعزعة سلطانها.

٤- بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى

اتخذت الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى مظاهر خاصة، واتسمت هذه الحياة بالبذخ والترف فكان الوزراء الفاطميون يعيشون حياة الترف ومن هؤلاء الوزراء يعقوب بن كلس الذى جعل فى قصره مطابخ خاصة له ولضيوفه، كما اتخذ طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية، وكان كذلك الوزير الأفضل بن بدر الجمال مترفاً فى حياته الخاصة.

اهتم الفاطميون بالأعياد الدينية وكثرت هذه الأعياد فى عصرهم، ومن هذه الأعياد عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة الهجرية ومولد النبى

احتفالاً باهراً يليق بمكانته العظيمة وقد وصف المؤرخون ما كان يقام فى هذا الاحتفال من مظاهر الروعة والابهار.

ومن المظاهر الدينية المألوفة فى هذا العيد قراءة السيرة النبوية فى المساجد، كذلك كانت ليالى الوقود وهى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان من اشهر المواسم التى احتفلت بها الدولة الفاطمية، وكان الناس يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان، وكانت تضاء المساجد بعد غروب الشمس ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر الذى يضاء بالمشاعل ويعقد فيه امجلس يضم القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة.

كان شهر رمضان من أهم المواسم الدينية التى اهتم الفاطميون بالاحتفال بها فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة من القصر الشرقى الكبير بصحبة الوزير والحرس الخاص ويخترق هذا الموكب شوارع القاهرة حتى يصل إلى جامع عمرو بن العاص حيث يقام احتفال استقبال شهر رمضان.

ومن مظاهر الاحتفال بالمواسم والأعياد إقامة الأسمطة والمآدب التى عنى الفاطميون بتنظيمها عناية خاصة، وكانت تقام فى المساجد أو قصر الخليفة أو الوزير، وكان الخليفة المعز أول من فعل ذلك، وتبعه الخلفاء الفاطميون، فكانوا يقيمون الأسمطة من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والعشرين منه وكان يدعى إليها قاضى القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة. وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب فى الجمع

الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمر بن العاص على التوالى لصلاة الجمعة.

كان يوم عاشوراء من الأيام التى احتفل بها الشعب المصرى إلا أنه كان يوم حزن تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى رثاء الحسين وفى نفس اليوم يقام سماط الحزن ويحضره الخليفة فى زى خاص. كذلك اهتم الفاطميون بوفاء النيل فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا بلغ الفيضان ستة عشر ذراعاً وكان يحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة ومعه عشرة آلاف فارس.

كذلك كان من الاحتفالات الهامة الاحتفال بعيد الغدير ويعرف عند الشيعة بذكرى وصاية النبى ﷺ للإمام على فى إمامة المسلمين، وقد احتفل بهذا العيد لأول مرة فى سنة ٣٦٢هـ، وكان الفاطميون يحيون ليلة هذا العيد بالصلاة وفى النهار يتم ركوب الخليفة ورجال الدولة والمتشيعين إلى الإيوان الكبير للاستماع إلى خطبة قاضى القضاة. اهتم المعز بالاحتفال بعيد الغدير اهتماماً كبيراً وتبعه فى ذلك خلفاؤه من بعده.

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى الاهتمام بالغناء والموسيقى فأقبل الخلفاء وغيرهم فى مجالسهم الخاصة وغيرها على سماع المغنين والمغنيات، وكانت معظم المغنيات من الجوارى، وكانت مجالس الطرب واللهو تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة فى أوائل عد الحاكم ثم أصدر الحاكم قوانين تحرم الغناء

والملاهى التى تعهد خطراً على الأخلاق العامة، ولكن مجالس الغناء واللهو عادت إلى الظهور بعد وفاة الحاكم بأمر الله.

أما عن وسائل التسلية فى العصر الفاطمى فكانت عديدة ومنها اللعب بالشطرنج وقد عرفه المسلمون فى عهد هارون الرشيد ثم انتشر بعد ذلك، ومن وسائل التسلية سباق الخيل وكان أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والوزراء والولاة. ومن مظاهر الحياة الاجتماعية أيضاً المجالس الاجتماعية التى كانت تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة، كما كانت المجالس الخاصة تعقد داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث المختلفة .

٥- بعض الأعياد والاحتفالات القبطية فى مصر الفاطمية

كان القبط فى مصر يحتفلون على مدار السنة بأربعة عشر عيداً، منها سبعة أعياد كبار هى: عيد البشارة والزيتونة والفصح وخميس الأربعين والخميس والميلاد والغطاس، وسبعة أعياد صغار هى: عيد الختان والأربعين وخميس العهد وسبت النور وأحد الحدود والتجلى والصليب.

ورغم أن هذه الأعياد كانت يحتفل بها الأقباط لإحياء مناسبات دينية، إلا أن المسلمين غالباً ما كانوا يشاركون الأقباط فى احتفالاتهم ويقدمون لهم التهنئة والهدايا فى هذه المناسبات، وكان الخلفاء الفاطميون فى معظم الأوقات يظهرون قدراً كبيراً من التسامح مع رعاياهم من القبط ويشاركونهم الاحتفال والابتهاج بأعيادهم ويهبون لهم فيها الأكسية والأطعمة والأموال.

وكانت هذه الأعياد مناسبة للانطلاق والترويح عن النفس، وتعد من أيام اللهو والغناء والطرب، وكان أهل مصر على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم ودياناتهم يخرجون فى أيام النوروز والغطاس: والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغيرها من الأعياد القبطية إلى المتنزهات، وخاصة "بركة الحبش" فكان ينصب فيها الخيام على اختلاف أنواعها وأحجامها، ويقيم فيها الناس بأهلهم وأولادهم وبصحبتهم المغنيات والراقصات، فيأكلون أشهى الأطعمة، ويشربون الخمور ويطربون بسماع الغناء

ويتفكهون ويمزحون، وكان الأمير تميم بن المعز يحتفل بهذه المناسبات بما عرف عنه من حب الغناء والطرب والشراب "فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة إربهم وينصرفوا فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان فى بيته ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة، ويركب الأمير فى عشارى ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاماً ومشروباً "فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً، أمرهم بإعادته وسألهم عما عز عليهم فيأمر لهم به ويأمر لمن يغنى لهم، وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التى على هذه البركة، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام ويتفرق الناس".

وسنعرض فى الصفحات التالية لأهم هذه الأعياد ومراسم الاحتفال بها من جانب الدولة الفاطمية وعامة الشعب.

١- عيد النيروز:

وهو من الأعياد القديمة التى احتفلت بها كثير من الشعوب على اختلاف جنسياتها وعقائدها وقيل أن أول من اتخذ النيروز أحد ملوك الفرس الأول ومعناه " اليوم الجديد " والنوروز عند الفرس يكون يوم الاعتدال الربيعى وقيل يرجع تاريخ الاحتفال به إلى سليمان بن داود وقيل هو اليوم الذى شفى فيه أيوب عليه السلام وهو يعد بمثابة الاحتفال برأس السنة القبطية، فكان القبط

يحتفلون به فى أول توت كما كان الفرس يحتفلون به فى أول يوم من السنة أيضاً أما أهل الشام فكانوا يحتفلون بالنيروز فى اليوم الأول من يناير ويسمونه "القلندس".

فهذا العيد ليس له تاريخ ثابت، بل يحتفل به كل شعب حسب تاريخ بداية السنة عنده.

ويذكر المؤرخون أول إشارة للاحتفال بهذا العيد فى العصر الفاطمى فى عهد الخليفة المعز سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م ويبدو أن المعز أراد أن يمنع الاحتفال بالنيروز فى هذا العام لما كان يجرى فيه من تعاطى الخمور علانية وما يصحب ذلك من مظاهر الانحلال والتهتك، فمنع المعز من وقود النيران وصب الماء فى الطرقات يوم النيروز ولكن المعز بما يتسم به من الكياسة والرغبة فى كسب قلوب رعاياه، خفف قبضته بعض الشئ، ففى العام التالى انطلق الناس فى الاحتفال بالنيروز وانتشر اللعب بالماء ورشه على بعضهم البعض وإيقاد النيران، وطاف المحتفلون بالأسواق وهم يحملون تمثالاً على شكل الفيل وتماثيل وعرائس ملونة وهم يعرضون ألعابهم ومضاحكهم واستمروا على هذه الحال مدة ثلاثة أيام وخرجوا عن الحد فى ذلك مما دفع المعز إلى إصدار أوامره بالكف عن ذلك ومنع إشعال النيران واللعب بالماء وقبض على جماعة وحبسوا وشهر بالبعض الآخر على الجمال لعدم التزامهم بالأوامر.

واستمر الاحتفال بالنيروز فى عهد خلفاء المعز، فاحتفل به فى عهد الخليفة العزيز "وكان من عادة الناس أكل الرطب قبل النيروز" كما احتفل به فى عهد الخليفة الحاكم، فقدم القواد الأتراك وكبار رجالالدولة إلى الحاكم فى هذه المناسبة هدايا نفيسة من الخيل والسلاح فقبل منهم بعضها شاكراً لهم صنيعهم ورد الباقى إليهم.

ويبدو أن هذا الاحتفال كانت له رسوم متبعة فى الدولة الفاطمية، ولم تذكر هذه الرسوم إلا فى عهد الخليفة الآمر، فيذكر المقريزى تفاصيل الاحتفال بيوم النيروز سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وكان يوافق التاسع من رجب، وقد وصلت بهذه المناسبة الكسوة الجارى توزيعها بمناسبة النيروز من الطراز وثغر الأسكندرية "وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها وأربابها".

وكانت توزع بهذه المناسبة على أرباب الرسوم أصناف معينة من الفاكهة وهى البطيخ والرمان والموز والتمر والسفرجل، ومن الأطعمة الهريسة المصنوعة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر بالإضافة إلى الخبز.

ومما يوحى بأن هذه التقاليد فى الاحتفال بعيد النيروز كانت متبعة قبل هذا التاريخ ما يذكره أحد المؤرخين "وأحضر كاتب الدفتر الحسابات بما جرت به العادة من إطلاق العين

والورق والكسوات على اختلافها فى يوم النيروز وغير ذلك من جميع الأصناف وهو أربعة آلاف دينار ذهبا وخمسة عشر ألـف درهم فضة والكسوات عدة كثيرة".

وكان يختص بالأموال والكسوات حاشـية القـصر ودار الوزارة والمستخدمون ورؤساء السفن وبحارتها، أمـا الفاكهة والأطعمة فكانت تـشمل جميـع أربـاب الرسـوم والوظـائف فى الدولة.

وكان من عادة الخليفة الآمر الركوب يوم النيـروز إلـى منظرة اللؤلؤة المطلة على الخليج وكان بها قـصر مـن أعظـم القصور وأجملها زخرفة وكانت تطل على البستان الكافورى وتعد من أجمل المتنزهات فى مصر، فيجلس الخليفة لمشاهدة مظـاهر الاحتفال بالنيروز، ويتجمع أسفل المنظرة أهل الطرب والغنـاء والموسيقى، ويحتشد حولهم الناس، فيغنون ويطربون ويـشربون الخمور علانية ويتراشون بالماء والخمر وتأخذ الجميع حالة من المرح والانطلاق الذى يصل إلى حد التهتك والفجور.

ومن مظاهر الاحتفال بها اليوم ركوب أمير يسمى "أميـر النيروز" وحوله جمع كبير من الناس يهزلون ويتضاحكون ويقف على دور الأكابر الذين يقدمون له الهبات المالية البسيطة علـى سبيل المزاح.

٢- عيد الغطاس:

يحتفل الأقباط فى مصر بهذا العيد فى يوم الحادى عشر من طوبة، وهو إحياء لذكرى قديمة عند المسيحيين، فيقال إن النبى يحيى بن زكريا المعروف بيوحنا المعمدان عمد المسيح عليه السلام فى هذا اليوم أى غسله فى بحيرة الأردن، وعندما خرج عيسى من الماء اتصل به روح القدس، لذلك كان من تقاليد النصارى تغطس أولادهم فى الماء فى هذه المناسبة ويطلقون عليها "يوم الغطاس" أو "ليلة الحميم".

واعتاد المصريون الاحتفال بعيد الغطاس فى العصر الإسلامى، وكان من أعيادهم العظيمة، ويروى أحد المؤرخين تفاصيل الاحتفال بهذا العيد كما شاهدها بنفسه سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤١م وكان على رأس الاحتفال محمد بن طغج الإخشيد الذى خرج مع حاشيته وكبار رجال دولته بالمواكب إلى داره المعروفة بالمختار بالجزيرة فى وسط النيل، وقد أمر رجاله فأشعلوا على ضفتى النيل ألف مشعل غير ما أضاءه أهل مصر من المشاعل والشموع وقد احتشد الآلاف من أهل مصر من المسلمين والنصارى على ضفتى النهر واجتمع الكثيرون فى الزوارق النيلية والبعض فى الدور المطلة على النيل وهم يحملون معهم حاجتهم من الطعام والشراب ويرتدون أفخر الثياب ويعزفون بآلاف الطرب، ويظهرون الألعاب المسلية والملاهى فكانت ليلة الغطاس من أجمل ليالى مصر وأشملها سروراً، وتظل

الناس ساهرة حتى قرب الفجر ولا تغلق أبواب الحارات فى هذه الليلة، وفى نهاية الاحتفال يغطس الناس فى النيل ويزعمون أن فى ذلك أماناً من المرض.

أما عن مظاهر الاحتفال بعيد الغطاس فى عهد الدولة الفاطمية، فقيل أن متولى الشرطة كان يخرج فى أول الليل فى موكب كبير وقد ارتدى أجمل ثيابه، ويحيط به حملة المشاعل والشموع الموكبية، ويطوف فى الطرقات مناديا فى الناس أن لا يختلط المسلمون مع النصارى فى تلك الليلة حتى يمارس النصارى شعائرهم فى سلام ورغم هذا التحذير فإن الاحتفال كان يشمل العنصرين، وكان النصارى يخرجون فى فجر هذا اليوم إلى النيل بأهلهم وأولادهم ويغطس أكثرهم فيه.

وكان الأقباط ممن يدينون بالمذهب الكاثوليكى لهم رسوم خاصة فى احتفالاتهم بالغطاس فيخرجون من كنيستهم فى قصر الشمع فى جمع كبير يحملون الصلبان ومن حولهم الشموع المضاءة وهم يرتلون بأصوات ملحنة ونغمات عالية حتى يصلوا إلى شاطئ النيل فيؤدون صلاة خاصة بهذه المناسبة، ثم يقف رئيس الأساقفة فى هذا الحشد ويلقى خطبة تحوى مناسبة الغطاس ومغزاها الدينى وفى نهايتها يبتهل بالدعاء لخليفة الفاطمى والوزير ولمن شاء من كبار رجال الدولة، ثم ينصرف الموكب إلى كنيسة قصر الشمع فى نفس نظامهم ويكملون بها احتفالاتهم وصلواتهم وقيل أن الخليفة الحاكم كان يحضر احتفال الكاثوليك

بالغطاس فى كثير من الأعوام ويشاهد طقوسهم وهو متنكر فلا يعرفه أحد من شهود الاحتفال.

ونلاحظ أن الخلفاء الفاطميين حتى عصر الخليفة الحاكم لم يشتركوا فى مظاهر الاحتفال بهذا العيد، وأكبر من شارك من الرسميين فى هذا العيد فى عهد الحاكم الكاتب فهد بن إبراهيم النصرانى، فيروى أنه فى سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م كان عيد الغطاس، فنصبت الخيام فى أماكن متعددة على شاطئ النيل وحضر الاحتفال فهد بن إبراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان الذى كان يتولى الوساطة للحاكم، واحتشد أمامه عدد كبير من المغنين وأصحاب الملاهى وهم يعرضون فنونهم وألعابهم على أضواء الشموع والمشاعل، وجلس فهد مع أسرته وحاشيته يطرب ويشرب إلى موعد الغطاس فغطس وانصرف.

وقبل أن اشتراك الخليفة الحاكم فى هذه المناسبة كانت تتم خلسة بحيث لا يشاهده أحد، ولعل هذا الإحجام من جانب بعض الخلفاء عن المشاركة فى عيد الغطاس، كان راجعاً إلى تحفظهم من الانغماس فى مظاهر العبث التى تجرى فى هذه المناسبة، فكان الناس يجاهرون بالفسق واحتساء الخمور وإظهار الملاهى، ووقوع هذه الأمور على مرأى ومسمع من الخلفاء يضعف من هيبتهم ويعطى الفرصة لأعدائهم للهجوم عليهم والتشهير بهم.

ولعل هذا كان من أهم الأسباب التى دفعت بعض الخفاء إلى تحريم الاحتفال بهذا العيد أو الحد من المظاهر الاجتماعية

السيئة التى كانت تحدث خلاله. حتى أن الخليفة المعز لم يتردد فى التهديد بعقوبة الشنق لمن يحتفل بعيد الغطاس سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م كما أصدر الخليفة العزيز سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م تحذيراً من اجتماع الناس فى يوم الغطاس ونزول الماء وإظهار الملاهى وهدد من يفعل ذلك بالنفى.

ورغم أن الاحتفال بالغطاس قد أعيد فى عهد الحاكم سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م كما ذكرنا إلا أنه لم يستمر طويلاً، إذ أصدر الخليفة أوامره سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م بمنع النصارى من الغطاس واستمر الحظر حتى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م فى عهد الخليفة الظاهر حيث جاء ذكر الغطاس عن أحداث هذا العام وقد بدأ لأول مرة يأخذ طابعاً رسمياً باشتراك الخليفة فى الاحتفال بعد أن أصدر الإذن لأقباط مصر بإظهار طقوسهم والاحتفال بالغطاس، فاحتشد المسلمون والأقباط على ضفتى النيل أمام المقياس، وضربت أعداد كبيرة من الخيام ووضعت فيها الأسرة لأعيان القبط، وقد اكتظ النيل بالمواكب والزوارق وازدحم فيها خلق كثير من العامة والخاصة مسلمين ونصارى، وعند دخول الليل زينت المراكب بالقناديل واشعلت الشموع، كما أضيئت الشواطئ بآلاف المشاعل والفوانيس ونزل الخليفة الظاهر بأحد المناظر المطلة على النيل لمشاهدة الاحتفال، ومعه حرمه، وأمر متولى الشرطة بحفظ النظام ومراقبة الناس، ونودى بألا يختلط المسلمون بالنصارى عند نزولهم فى النيل، فضرب متولى

الشرطة خيمته عند الجسر لمراقبة الاحتفال مع أعوانه، وحضر الرهبان ورجال الدين المسيحى يحملون الصلبان وحولهم الشموع ورتلوا صلواتهم وأدعيتهم حتى تم الغطاس.

ورغم أن سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م كانت من سنوات الشدة فى الدولة الفاطمية فتعرضت البلاد خلالها للمجاعة وانتشرت الأمراض وهلك الكثير من الأهالى، فإن الظاهر شارك النصارى فى احتفالهم بهذا العيد دون اكتراث لما يحدث لرعيته فيروى المقريزى، أن الظاهر عند عودته من الاحتفال بعيد الغطاس فى آخر الليل إلى قصره، شاهد فى طريقه عدداً من الموتى مطروحين فى الطرقات، فأمر لهم بأكفان ونفقة لدفنهم.

وقد أصبح لهذا العيد رسوم مقررة من الأطعمة والفاكهة تمنح لأرباب الرتب والوظائف من المسلمين والنصارى، فكانت تحمل فى المراكب أطنان من الأترج والنارنج والليمون والقصب والسمك البورى، وتوزع عليهم أثناء الاحتفال كما كانت الدولة الفاطمية تهادى رؤساء القبط فى هذه المناسبة بالبورى والقصب والحلوى والزهور.

٣- خميس العهد:

يأتى هذا العيد قبل "عيد الفصح" بثلاثة أيام، ويحتفل الأقباط به فى كنائسهم بأن يحضروا إناءاً مملوء بالماء ويرتل عليه رجال الدين ويتلون الأدعية المناسبة، ثم يقوم البطريرك بغسل أرجل الحاضرين فى هذا الإناء. وفى اعتقادهم أن المسيح عليه السلام

قد قام بهذا العمل مع تلاميذه فى مثل هذا اليوم بهدف تعليمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد بألا يتفرقوا، وأن يتواضع بعضهم لبعض.

والعامة يطلقون على هذا العيد خميس العدس لأن من عادة النصارى طبخ العدس فى هذا اليوم على أنواع مختلفة، ويطلق عليه أهل الشام خميس الأرز أو خميس البيض يقول أهل الأندلس خميس أبريل وأبريل اسم شهر من شهورهم، ويبدو أن هذه التسميات راجعة إلى نوع الطعام الذى اشتهر أهل كل إقليم بتناوله فى هذه المناسبة.

وكان من عادة أهل مصر من المسلمين والنصارى تبادل الهدايا من الأطعمة فى خميس العهد، فيتهادون البيض الملون الذى يباع بكثرة فى أسواق القاهرة فى هذه المناسبة، كما يتهادون أنواع السمك المختلفة والعدس المصفى.

ومن مظاهر احتفال الدولة الفاطمية بهذا العيد، إصدار عملة خاصة تضرب بهذه المناسبة فى دار الضرب تسمى "خروبة" تفرق على رجال الدولة وأرباب الرتب من المسلمين والنصارى طبقاً لرسوم مقررة.

٤- عيد الميلاد:

يحتفل أقباط مصر بهذا العيد فى التاسع والعشرين من كيهك، وهو ذكرى ميلاد السيد المسيح، ودائماً يوافق يوم الاثنين، فتبدأ الاحتفالات منذ مساء الأحد وهى ليلة الميلاد فتزين الكنائس

وتكثر فيها الإضاءة ويجتمع فيها أعداد كبيرة من المصلين.

وكان النصارى يظهرون بهجتهم وسرورهم بهذه المناسبة بإضاءة دورهم بالفوانيس الملونة البديعة الصنعة وبداخلها الشموع المصبوغة، كما كانوا يقبلون على أنواع من الملاهى واللعب بالنار، وكانت الأسواق تزدان بالفوانيس والشموع والمشاعل فى هذه الليلة، وبلغ من كثرة عرض الفوانيس فى هذه المناسبة فى الأسواق أن النصارى كانوا يتصدقون بها على الفقراء.

وكانت الدولة الفاطمية تشارك الأقباط فى احتفالهم بهذا العيد، فتوزع على كبار رجال الدولة أصناف مختلفة من الحلوى وشراب الجلاب وصوانى الزلابية وسلال السمك البورى، والخبز المصنوع من الدقيق الأبيض.

٥- عيد الصليب:

يحتفل النصارى بعيد الصليب فى اليوم السابع عشر من توت الموافق الرابع عشر من يوليو، ويعتقدون أنه فى هذا اليوم سنة ٣٢٨م عثرت الملكة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين على الصليب الذى صلب عليه السيد المسيح، فصنعت له الملكة غلافاً من ذهب وأمرت ببناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس وأودعت فيها الصليب.

وكان أقباط مصر يحتفلون بهذا العيد احتفالا كبيراً، ويخرجون عن الحد فى الإقبال على شرب الخمر وأنواع المحرمات والفسق مما دفع الخليفة العزيز إلى إصدار أوامره

بمنع النصارى من الاحتفال بهذا العيد، وحرم عليهم الخروج إلى ضواحى الفسطاط حيث كانوا يظهرون مباذلهم، وأمر صاحب الشرطة بإحكام الرقابة على الطرق والدروب المؤدية إلى ضواحى الفسطاط، وذلك فى رجب سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م.

ولكن الخليفة العزيز بما عرف عنه من تسامح مع أهل الذمة، ترك للنصارى حرية الاحتفال بهذا العيد فى العام التالى، فيروى المقريزى "ولأربع عشر خلت من رجب سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، كان عيد الصليب، فجرى الناس فى الاجتماع فيه للهو على ما كانوا عليه".

ولكن الحاكم أصدر قراراً بمنع الاحتفال بهذا العيد فى سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م وقرئ سجل بذلك فى جامع عمرو وفى الطرقات. ويبدو أن مظاهر الاحتفال بهذا العيد أخذت فى الانقراض بعد ذلك، فيذكر المقريزى أن الاحتفال بعيد الصليب قد أبطل "حتى لم يكن يعرف اليوم (زمن المقريزى) بديار مصر نهائياً".

٦- عيد الشهيد:

يحتفل أقباط مصر بهذا العيد فى الثامن من شهر بشنس، ويرتبط الاحتفال به بنهر النيل مصدر الحياة والنماء، والنصارى يعتقدون أن النيل لا يبلغ زيادته وتمام فيضانه فى كل عام إلا إذا ألقوا فيه تابوتاً من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى.

وفى هذا اليوم يحتشد على ضفتى نهر النيل أعداد كثيرة

من أهل مصر وترحل النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها، ويخرج عامة أهل القاهرة والفسطاط على اختلاف طبقاتهم، وينصبون أعداداً كثيرة من الخيام على شاطئ النيل وفى الجزائر التى فى وسط مجراه حيث يجتمع المغنون والمغنيات وأرباب الملاهى والألعاب المختلفة، وكان يندس بين هذه الجموع أهل الخلاعة والفسق، مما يتسبب فى إثارة الفتن وإزهاق الأرواح، لأن معظم الناس فى هذا اليوم يكونون سكارى.

وكان بعض الناس يتجمعون فى ضاحية شبرا فى تلك المناسبة، ويقبلون على شراء الخمور لاشتهار المنطقة بزراعة الكروم وصناعة النبيذ، وكان أهل شبرا يعتمدون فى وفاء خراجهم على ما يباع فى هذا العيد من خمور.

ولم تذكر المصادر شيئاً عن موقف الدولة الفاطمية من هذا العيد وما يحدث فيه من مظاهر الفسق والتهتك وإقبال الناس خلاله على الخمور بعكس ما كان يصدر فى المناسبات الأخرى من أوامر وقرارات عن الخلفاء بمنعها أو الزجر والتهديد لمن يجيد خلالها عن الأخلاق العامة، ولعل ذلك راجع إلى أن عيد الشهيد كان فى مظهره يوماً شعبياً يخرج الناس فيه على اختلاف دياناتهم وطبقاتهم للنزهة والاستمتاع بالغناء والطرب واحتساء الخمور، ولم يكن يخص ديانة أو عقيدة، رغم ارتباطه بإلقاء التابوت المذكور.

٧- عيد الزيتونة:

يحتفل الأقباط بهذا العيد فى الأحد السابع من صومهم، الذى يوافق اليوم الثانى والأربعين من بداية الصوم، ويعرف هذا العيد بعيد الشعانين ومعناه التسبيح، وهو يحيى ذكرى ركوب السيد المسيح لحماره ودخوله إلى بيت المقدس ومن حوله النصارى يسبحون وهو يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وكانت مظاهر الاحتفال بهذا العيد تتميز بتزيين القبط لكنائسهم بأغصان الزيتون وقلوب النخل، ويفرق منها عليهم على سبيل التبرك بها، ويخرجون فى جماعات من الكنائس حاملين سعف النخل.

وقد أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله عدة قرارات بمنع النصارى من الاحتفال بهذا العيد وتزيين الكنائس وحمل الخوص وأمر بالقبض على من وجد لديه شئ منه، وأمر بمصادرة ما علق فى الكنائس من أغصان الزيتون والزينات وأحرق كثيراً من الصلبان وقد امتد المنع إلى سائر أقاليم الدولة الفاطمية بما فيها بيت المقدس.

ولكن الاحتفال بهذا العيد وغيره من أعياد النصارى فى مصر، أعيد الاحتفال بها فى عهد خلفاء الحاكم، فكان الأقباط بالإسكندرية يظهرون احتفالهم بعيد الزيتونة فى عهد الخليفة المستنصر، فقيل أن أقباط الإسكندرية كانوا يخرجون فى هذه المناسبة فى موكب كبير حاملين أغصان الزيتون وسعف النخيل

والصلبان، وهم يرتلون الأدعية والقراءات، وكان موكبهم يخترق شوارع المدينة فى هدوء دون أن يعترض طريقهم أحد وفى حراسة والى الإسكندرية وأعوانه.

٨- عيد البشارة :

وهذا العيد أصله بشارة جبريل مريم بميلاد المسيح وكانت النصارى تحتفل بهذا العيد فى اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات.

٩- عيد الخميس :

وهو العنصرة وكان يحتفلون به بعد خمسين يوماً من يوم القيام وزعموا أن بعد عشرة أيام من الصعود وخمسين يوماً من قيامة المسيح اجتمع التلاميذ فى علية صهيون فتجلى لهم روح القدس فى شبه ألسنة من نار فامتلأوا من روح القدس وتكلموا بجميع الألسن وظهرت على أيديهم آيات كثيرة فعاداهم اليهود وحبسوهم فنجاهم الله منهم وخرجوا من السجن فساروا فى الأرض متفرقين يدعون الناس إلى دين المسيح .

الطعام والشراب

تميزت مصر بوفرة خيراتها وكثرة إنتاجها الزراعى والحيوانى والذى كان غالباً ما يزيد عن حاجتها فلا تبخل بخيراتها على جيرانها وتسد حاجتهم من الغلال والأطعمة والصناعات الراقية.

وقد أبدى الرحالة دهشتهم من كثرة ما شاهدوه فى أسواق مصر من أصناف الأطعمة والخضروات والفاكهة التى يستحيل أن تجتمع بمثل تلك الصورة من التنوع والوفرة فى أى قطر آخر، فيوجد بمصر كل وقت "المأكول والمأدوم والمشموم وسائر البقول والخضر، جميع ذلك فى الصيف والشتاء" وتلك الخيرات الوفيرة بهرت الأجانب الذين زاروا مصر وجعلتهم يشيدون بخيراتها وثرائها، وقد سجل الرحالة ذلك فى مشاهداتهم.

وقد أظهر الفاطميون اهتماما واضحاً بالتأنق فى طعامهم وشرابهم والاهتمام بالجيد من أصنافه والأنفاق على مآدبهم العامة والخاصة بسخاء وبذخ، وكان توزيع الأطعمة وإقامة الأسمطة الفخمة مقترنا بجميع أعيادهم واحتفالاتهم، كما كانت الدولة الفاطمية تسد حاجة موظفيها وأرباب الرواتب فيها من الغلال وسائر ما يلزم مطابخهم من الأطعمة المختلفة.

وسنعرض فى الصفحات التالية لأهم أصناف الطعام والشراب التى انتشرت فى مصر فى العصر الفاطمى.

أولاً: الحبوب والبقول:

تمتاز مصر بوفرة إنتاجها من الغلال والبقول مثل القمح والشعير والعدس والحمص والفول وغيرها ومعظم هذه الزراعات تدخل فى غذاء الشعب المصرى، ويعد الخبز من أهم عناصر الطعام على المائدة المصرية، سواء فى ذلك طعام العامة أو الخاصة، حتى مائدة الخليفة الفاطمى لم تكن تخلو من الخبز لذلك كانت جودة صناعة الخبز والمحافظة على نظافته موضع اهتمام الدولة الفاطمية والمسئولين فيها.

فكانت الدولة تراقب المطاحن عن طريق المحتسب وأعوانه، وتشترط على الطحانين ضرورة غربلة الغلة مما قد يكون قد علق بها من مواد غريبة والعناية بتنقيتها قبل طحنها، وألا يخلطوا الغلة بأنواع أخرى أقل قيمة من القمح مثل الشعير أو الفول أو الحمص.

وقبض على جماعة من الخبازين سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م فى عهد الخليفة الظافر وضربوا لاستغلالهم ظروف المجاعة التى اجتاحت البلاد وخلطوا التراب بالدقيق.

كما كانت عملية عجن الدقيق تخضع لشروط دقيقة الهدف منها المحافظة على نظافة الخبز، فكان على العجان الاهتمام بغسل الأوعية التى يستخدمها ولا يستعمل فى العجين قدميه ولا ركبتيه ولا مرفقيه، وقد أصدر الخليفة الحاكم مرسوما فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م يحرم على الخبازين استخدام أرجلهم

فى العجن، كما كان العجان يلتزم بلبس ملابس تحول دون وصول العرق الذى ينزل من إبطيه فى الطعام ويكون ملثما حتى إذا عطس أو تكلم لا ينزل رذاذ من فمه أو أنفه فى العجين، ويشد على جبينه عصابة بيضاء تمتص عرقه فلا يتسرب منه شئ فى العجين.

ويخبز العجين بعد التأكد من تخمره، ويضاف إليه أنواع من التوابل لينصلح مذاقه ولا يخرجه الخباز من الفرن إلا بعد التأكد من تمام نضجه، وكان يشترط على أصحاب المخابز أن يفصلوا بين الخبز، وما قد يصل إليهم من الناس من أطعمة لإنضاجها مثل الأسماك وغيرها، حتى لا يسيل شئ من هذه الأطعمة على الخبز فيفسد مذاقه ورائحته.

وعرف من أنواع الخبز فى العصر الفاطمى، الخبز الخشكار وهو أقل أنواع الخبز ثمنا ولا يقبل الناس عليه بسبب سواد لونه لأنه يصنع من الدقيق غير المنخول(١٨) وكان هذا النوع من الخبز ينتشر أثناء المجاعات حيث تقل الغلال لتكالب الناس على الخبز مما يؤدى إلى تلاعب الطحانين والخبازين فى صناعة الخبز، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث فى سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م عندما تعذر وجود الخبز وظهر فى الأسواق الخبز الأسود، فضج الناس ورفعوا شكواهم للخليفة الحاكم ومعها رغيف ليشاهد بنفسه ما عليه حال الخبز.

وكان معظم ما يخبزه أهل القاهرة والفسطاط هو الخبز الحوارى وهو مصنوع من الدقيق الأبيض المنخول، وكان أغلى سعرا من الخشكار، أما الخبز "السميذ" فكان أغلاها ثمنا لأنه يصنع من أرقى أنواع الدقيق وكان يصنع للخليفة الفاطمى خبز يسمى "الخبز الموائدى".

وكان الخبز اليابس المعروف بالكعك يؤكل فى القرى ويخزن لفترات طويلة، كما كان الكعك يعتبر طعاماً أساسياً لرجال الأسطول فى عهد الدولة الفاطمية لامكان تخزينه لفترات طويلة.

والطريف أن الخبز اليابس كان يستخدم فى ذلك الوقت كوسيلة للتعامل والتبادل، فيشترى به الناس بعض الأشياء، ويدفعونه ثمناً لدخول الحمامات وكان الخبز يصنع أيضاً من الشعير، وكان طعام الفقراء لرخص ثمنه عن الخبز المصنوع من دقيق القمح.

وكانت الدولة الفاطمية تراقب عملية إنتاج الخبز حتى يظل متوفرا فى الأسواق ومن مهام المحتسب تسجيل أسماء الخبازين وأماكن حوانيتهم، ويحدد لكل خباز كمية من الدقيق يخبزها كل يوم ويلتزم الخباز بذلك.

وكان الفول من الأطعمة التى يقبل عليها الناس، وكان يؤكل أخضر كما كان يؤكل مسلوقا ويضاف إليه الفلفل والملح والبهارات وكان أحياناً يطبخ بالسمن واللبن ويطلق عليه البيسار.

وكان الترمس من الحبوب التى يقبل الناس علـــى أكلهـــا، فكان يسلق وينقع فى الماء عدة أيام لتذهب مرارته وكان يحلى أو يملح بعد ذلك والمعروف عن الترمس أنه إذا ترك لفترات طويلة عند الباعة يصبح غير صالح للأكل ويضر بآكليه، لذلك أصـــدر الحاكم فى سنة ٣٩٩هــ/ ١٠٠٨م قراراً بمنع بعض أنواع مـــن الأطعمة من بينها "الترمس المعفن".

وكان الحمص المسلوق من الحبوب التى ينتشر بيعها فـــى الأسواق، وكان يحمله الباعة الجائلون فى القدور ويباع أيضاً فى الحوانيت كما كان يستخدم الحمص والترمس والحلبة وغيرها من الحبوب فى أنواع مختلفة من الأطعمة.

أما الأرز فكان يزرع فى مصر بكميات وفيـــرة وكـــان مـــن الأطعمة الرئيسية لسكان السواحل المصرية حيث يطبخونه مع السمك وكثيراً ما يدخل الأرز فى صناعة أنواع متعددة من الحلـــوى فكـــان يطبخ باللبن ودهن اللوز وبطرق أخرى متعددة.

أما العدس الأسود والمقشر فكان من الأطعمة التى يقبل عليها العامة، وكان يوضع على مائدة الخليفة فى سماط الحـــزن بمناســـبة الاحتفال بيوم عاشوراء.

وكان الكشك من الأطعمة المنتشرة فى ذلك العصر وهو مـــن أصناف الأطعمة التى تمنح لأرباب الوظائف فى الدولـــة الفاطميـــة ويعرف هذا الصنف من الطعام أيضاً بالكشكية وهو ما هـــرس مـــن الحنطة أو الشعير حتى ينسلخ قشره، ويضاف إليـــه اللـــبن وأحيانـــا يطبخ باللحم.

ومن الأطعمة التى تدخل الحبوب فى صناعتها "السويق" وطريقة صنعه أن تحمص الحبوب جيداً ثم تطحن ويصنع من دقيق الحنطة أو الشعير أو الفول، وأحيانا يطحن مع الحبوب البلح والسكر ويمكن فى هذه الحالة أن يصنع منه شراب حلو والسويق. طعام يصلح للرحلات لأنه سهل التجهيز وتصنع منه غالباً العصيدة أو الثريد بإضافة الماء أو الزبد إليه.

كما كان السويق يصنع أيضاً من الفواكه بعد تجفيفها وقليها ثم طحنها وكان السويق الناعمة من الأطعمة التى تقدم للخليفة الفاطمى على مائدة السحور فى شهر رمضان.

ثانياً: اللحوم:

تعد اللحوم من عناصر الغذاء الرئيسية والتى تدخل فى صناعة الكثير من الأطعمة فى مصر على مر العصور، وكانت من العناصر التى تعتمد عليها الأسرة المصرية فى العصر الفاطمى، فكانت من بين المشتريات اليومية للأسرة المصرية كما ورد فى برديات ترجع إلى القرن الرابع الهجرى.

وكانت الأسواق فى مصر الفاطمية تحتوى على أعداد كبيرة من حوانيت باعة اللحوم النيئة والشوائين والطباخين الذين يستخدمون فى طبائخهم لحوم الحيوانات المختلفة والطيور. وكانت الدولة الفاطمية تصدر قرارات فى بعض الأحيان بمنع ذبح الأبقار محافظة على الثروة الحيوانية وحتى تستخدم فى أعمال الزراعة ولا يصرح بذبحها إلا فى عيد الأضحى وقد ضج

الجـزارون بالـشكوى عنـدما منـع الخليفـة الظـاهر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ذبح الأبقار، لأن فى حوزتهم أعداداً كبيرة منها أنفقوا عليها الأموال فى علفها وتسمينها وإعـدادها للـذبح وأعلنوا فى شكواهم أن تلك الأبقار لا تصلح لأعمال الزراعـة، وسألوا الإذن فى ذبحها، فاستجاب لهم الخليفة، وحدد لهم ثلاثـة أيام فقط لتصريف ما عندهم من لحوم، فازدحم الناس فى طلـب اللحوم خلال تلك الفتـرة، ثـم أحـضر المحتـسب الجـزارين والهراسين ومنعهم من بيع اللحوم وذبح الأبقار ولعل هذه الحادثة هى أول إشارة تاريخية لتحديد بيع اللحوم فى أيام معينـة مـن الأسبوع حفاظاً على الثروة الحيوانية وعدم انقراض الحيوانـات التى كانت عماد الحياة الزراعية فى ذلك الوقت.

وكانت حوانيت بيع الشواء تنتشر فى الأسـواق، وكانـت الخراف تشوى كاملة فى الأفران، وللتأكد من تمام نضجها لابـد أن ينقص وزنها بمقدار الثلث وكانت الخراف الصغيرة المشوية من أفضل الأطعمة على مائدة الخليفة الفاطمى كما كانت تـوزع الخراف المشوية التى تعمل بمطبخ القصر على أرباب الوظائف فى الدولة احتفالا بموسم رأس السنة الهجرية، وفـى مناسـبات أخرى متعددة.

وكان للخليفة الحاكم ولع بالتجول فى الأسواق، ومن عادته الوقوف بحانوت ابن الأزرق الشواء والتحدث إليه ويبدى اهتمامه بصناعته وما يقدمه من ضروب الشواء.

وكانت "الهريسة" من أهم أنواع الأطعمة المنتشرة في مصر في العصر الفاطمي وتدخل في صناعتها لحوم الضأن والبقر والدجاج ودقيق بعض الحبوب مثل القمح بالإضافة إلى البصل والتوابل بنسب محددة. وكانت الهريسة من الأطعمة التي تفرقها الدولة الفاطمية على أرباب الوظائف فيها بمناسبة الاحتفال بعيد النيروز.

وكان المحتسب وأعوانه في الدولة الفاطمية يشرفون على صناع الهريسة في الأسواق ويراقبونها أثناء صناعتها حتى لا يخلون بالشروط الضرورية لإخراجها في أفضل صورة، ويلزمونهم بعملها طبقاً للنسب المقررة من اللحم والدقيق والبصل والتوابل ثم يختمون على قدور الهريسة بعد إتمام صناعتها لمنع تغيير ما فيها أو إضافة مواد أخرى إليها.

وهناك نوع من الهريسة تسمى" هريسة الفستق" يدخل في صناعتها الفستق ولحم الدجاج وكانت الهريسة تعد من أفضل الأطعمة في فصل الشتاء لما تمتاز به من دسم وتوابل ومواد تبعث على الدفء.

ومن الأطعمة المشهورة في ذلك الوقت أيضاً "النقانق" وهى تصنع بحشو أمعاء الحيوانات المذبوحة باللحم المدقوق يضاف إليه البصل والتوابل وكانت النقانق تباع في الأسواق مقلية ويقبل الناس على شرائها، وكانت تخضع لمراقبة المحتسب مثل غيرها من الأطعمة حتى لا ينالها غش في صناعتها.

كما كانت اللحوم تدخل فى صناعة "السنبوسك" وهو طعام يعمل من فخذ الضأن بوجه خاص، وطريقة صنعه أن يقطع اللحم قطعاً صغيرة ويسلق إلى أن ينضج ثم يصفى عنه الماء ويدق إلى أن ينعم ويوضع فى إناء ويضاف إليه دهن وتوابل وحمص، فإذا نضج يوضع عليه بقدونس ونعنع، ويضاف إليه الخل وماء الليمون ويغلى، ثم يحشى فى الرقاق.

ومن الأطعمة التى اشتهرت دار الفطرة الفاطمية بصناعتها "البرماورد" أو "البزماورد" وهو طعام يدخل فى صناعته اللحم وخاصة لحوم الجداء وصدور الدجاج التى تقلى بالزبد والبيض، وكان "البزماورد" يوزع فى المناسبات وبعض الأعياد على أرباب الوظائف فى الدولة الفاطمية.

ومن أصناف اللحوم التى اشتهرت صناعتها فى ذلك العصر "الطباهجة المشققة" وتصنع من اللحم المقطع شرائح وتقلى فى الدهن، ويدخل فى صناعتها أحياناً البصل والبيض ويطلق عليها فى هذه الحالة "الكباب الشامى" وذلك بأن يدق اللحم دقاً ناعماً ويضاف إليه البصل ثم يقلى فى دهن الشيرج.

وكان الطباخون ملزمون بأن يعلنوا عن نوع اللحم الذى يستخدمونه فى مطابخهم حتى لا يخلطوا لحوم الضأن مع لحوم المعز، ولحوم الإبل مع لحوم البقر، وكان المحتسب يراقب هذه الأمور تحاشياً من وقوع الغش لاختلاف أثمان كل نوع من هذه اللحوم، ولما قد تسببه من أضرار للناس الذين لا يحتملون بعض أنواعها أو لا يستسيغون طعمها.

وكانت كبد الحيوانات المذبوحة من الأطعمة المنتشرة فى الأسواق ويقبل الناس على شرائها وتقدم مسلوقة مع البصل أو مشوية.

وقد انتشرت حوانيت بيع الرءوس فى العصر الفاطمى وكانت الرءوس والأكارع تباع نيئة أو ناضجة، وكان الناضج منها يسلق بالماء المضاف إليه التوابل المناسبة والملح ليطيب مذاقها، وكانت تباع فى بعض الأحيان مشوية. ومن وظيفة المحتسب مراقبة إجادة تنظيف الرءوس والأكارع وتنقية ما عليها من شعر وصوف قبل بيعها، وكانت الرءوس المشوية تخرج من مطابخ القصر الفاطمى وتوزع على رجال الدولة بمناسبة الاحتفال برأس السنة الهجرية.

ويبدو أن هذا الصنف من الطعام كان موضع إقبال لدى الخليفة الظاهر وحاشيته، فيذكر المقريزى فى حوادث سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٤م أنه "وكل بدكاكين الرواسين فى جميع الأسواق، وأخذ ما فيها من الرءوس، وكان قد طلب خمسمائة رأس، وألف رطل رقاق".

وكانت معظم تلك الأطعمة تصنع فى حوانيت الطباخين فى الأسواق ويقبل أهل مصر على شرائها ولا يطبخون فى منازلهم إلا نادراً، فكان عادة أهل مصر عدم ادخار الطعام بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق ولعل هذا هو السبب وراء انتشار حوانيت الطباخين فى معظم أسواق الفسطاط والقاهرة.

وكان أهل مصر يطبخون اللحوم مع البقول والخضر بأن تقطع مع البامية أو القلقاس، ويقال إن الملوخية انتشرت فى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المعز عندما اقترح عليه الأطباء أكلها كعلاج من يبس فى مزاجه، وعوفى من مرضه فأكثر المعز من أكلها وسموها ملوكية، فحرفتها العامة وقالت ملوخية وعند طبخ اللحوم والخضروات أو البقول كانت تنسب إليها الطبخة مثل الكرنبية والقنبيطية واللفتية والجزرية.

واشتهرت مصر بتربية أنواع الطيور التى تؤكل وخاصة الدجاج، وكانت معامل إنتاج الفراريج بطريقة صناعية منتشرة فى أنحاء البلاد وكان المعمل ينتج فى المرة الواحدة ما بين عشرة وعشرين ألف فروج وكانت هذه العملية صناعة يتخذها الناس للتجارة والكسب.

"كان الاهتمام بهذه الفراريج كبير حيث أن الدجاج كانت له أثمان مختلفة تبعاً لتغذيتها وأنواعها، ويقدم لنا المقريزى فى حوادث سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م أنواع الدجاج وأثمانها الدجاج المعرق وسعره ستة بدينار والمصدر أى كبير الصدر، أربعة بدينار، والمسمن ثلاثة بدينار، والفائق اثنان بدينار، وكانت مائدة الوزير اليازورى تحوى الدجاج الفائق أما أهل داره وحاشيته فكان طعامهم من الدجاج المسمن.

ومن مشهيات الطعام المخللات، وكان الباذنجان ينقع فى الماء والملح بعد تقطيعه ثم يقلى فى الزيت، بالإضافة إلى تمليحه

حيث يضاف إليه بعد سلقه الخل الحاذق والفلفل وأنواع التوابل وذلك بعد قلع أقماعه اليابسة كما كانت المخللات تصنع من الخيار والبصل والثوم والزيتون وغيرها، وكانت الملوحات والمخللات تقدم فى سماط ذكرى عاشوراء على مائدة الخليفة تعبيراً عن الحزن.

ومن المواد المستخدمة فى المطبخ المصرى بالإضافة إلى اللحوم والخضروات زيت الزيتون والشيرج (زيت السمسم) والتوابل والخل وغيرها مما ورد فى الحسابات اليومية للأسر المصرية فى القرن الثالث والرابع الهجرى.

وكان الجبن من الأطعمة اليومية للأسر المصرية ويفضل مع اللبن كغذاء للأطفال وكان توزيع الألبان من بين رسوم الدولة الفاطمية فى احتفالها بليلة رأس السنة الهجرية كما كان الجبن واللبن الخالى من الدسم من الأطعمة فى سماط الاحتفال بعاشوراء وكان اللبن الطازج والذى نزع منه الزبد من الأطعمة التى تقدم على مائدة السحور للخليفة الفاطمى، كما كان اللبن الرائب والجبن القريش من الأطعمة المنتشرة بين المصريين فى العصر الفاطمى وتقدم إلى أرباب الدولة من بين ما يصرف لهم من رواتب الأطعمة .

الأسماك:

تعددت مصايد الأسماك التى امتازت بوفرة إنتاجها فى مصر كنتيجة طبيعية لما تمتاز به البلاد من سواحل طويلة تطل

على بحرين كبيرين بالإضافة إلى البحيرات الداخلية ونهر النيـــل حتى أن أهل مصر يأكلون صيد البحر الأحمر والبحر المتوســط طازجاً لقرب المسافة بين البحرين.

ويذكر المؤرخون أن عوام المصريين كــانوا يعتمــدون فـــى غذائهم على "الصير والصحناة" "والخبز والنيدة"، ويبــدو أن وفــرة إنتاج الأسماك فى مصر ورخص ثمنها دفعت المصريين إلى الإقبال على أكلها وعدم إكثارهم من أكل اللحوم ولكن ليس معنى ذلك اعتماد المصريين على الصير والصحناة فى غذائهم فأوراق البردى العربية تحوى وثائق هامة عن حسابات بعض الأسر المصرية فى القــرنين الثالث والرابع الهجريين تبين عناصر الغذاء اليومى التى تشتريها هذه الأسر لم يذكر فيها السمك المملح بل نجد ذكر اللحم والجبن واللـــبن والفول والزيت والفواكه.

وكانت الأسماك تصاد بكميات كبيرة فى أيام الفيضان، فعنــد حفر الخلجان والقنوات ليتدفق إليها ماء الفيضان، يدخل السمك الوفير ويبقى فى الخلجان بعد انحسار الماء فيصبح من الـسهل اصـطياده، فيأخذه الناس ويأكلون كفايتهم ويكبسون ما بقى منه بالملح ويبيعونـــه إلى التجار فينقل إلى أنحاء البلاد.

وكان من أشهر أنواع السمك فى مصر فى العصر الفــاطمى البورى واللبيس وكان البورى يملح ويحمل إلى جميع الأقطار وكـــان من رسوم الدولة الفاطمية توزيع السمك البورى وأنواع أخرى مـــن الأطعمة على أعيان القبط وكبار رجال الدولة بمناسبة الاحتفال بعيــد المسيح وموسم الغطاس.

ومن الأسماك النيلية ذات الشهرة فى ذلك الوقت، سمك "الراى" وهو نوع من السمك فى حجم البورى لونه أحمر.

وكان السمك يؤكل مشويا أو مقلياً وأحياناً كان يسلق بإلقائه فى الماء المغلى أما السمك المملح فكانت العادة أن ينقع قبل أكله بالخل والزيت والتوابل حتى ينصلح مذاقه.

وقد أصدر الخليفة الحاكم قراراً بالنهى عن تداول بعض أنواع الأطعمة والأشربة من بينها السمك الدلينس الذى لا قشر له، وأخذ العهود على بائعى السمك بامتناعهم عن بيعه وهدد من يخالف أوامره بالقتل.

ويبدو أن هذا القرار كان يهدف إلى المحافظة على صحة الناس الذين كانوا يقبلون على هذا النوع من السمك ولعل خلوه من القشر يجعله سريع التلف.

خامساً: الحلوى والفاكهة:

تعد "النيدة" من أشهر أنواع الحلوى التى أقبل عليها عامة المصريين فى العصر الفاطمى، وقد أعجب المقدسى بحلاوة مذاقها وطريقة عمل النيدة هى أن يطبخ القمح حتى يخرج نشاه فى الماء ثم يصفى ويطبخ ذلك الماء حتى يغلظ ثم يذر عليه الدقيق وعندما يتماسك قوامه يرفع عن النار وكان هذا الصنف رخيصاً يباع بسعر الخبز وتسمى نيدة البوش، أما النيدة المعقودة التى لا يضاف إليها الدقيق فأغلى سعراً من الأولى، وكان طباخوا

النيدة فى الأسواق لا يستعملون إلا الدقيق الأبيض ويكثرون من إضافة النشا إليها لتزداد حلاوتها.

ومن أصناف الحلوى التى كانت تنتشر فى حوانيت الحلاويين فى الدولة الفاطمية الزلابية وتصنع من الدقيق بعد عجنه وتخميره، ثم تقلى بزيت الشيرج وتؤكل بالعسل أو السكر.

وكان من رسوم الدولة الفاطمية توزيع الزلابية مع أصناف أخرى من الأطعمة والحلوى على أرباب الرسوم بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد المسيح.

وقد أظهر الفاطميون اهتماماً بصناعة الحلوى لتوزيعها فى الأعياد والمواسم على أرباب الوظائف فى الدولة وتزيين موائدهم بها والتى كان يصل منها الكثير إلى أيدى العامة وقد عبروا عن هذا الاهتمام منذ عهد الخليفة العزيز الذى بنى دار الفطرة وهو أول من قرر رسوم توزيع الحلوى فى الدولة الفاطمية.

وكانت تصنع فى دار الفطرة قصور السكر الضخمة التى تزن الواحدة منها سبعة عشر قنطاراً ويحملها العتالون ليزينوا بها سماط عيد الفطر وكانت تلك القصور تدهن بأوراق الذهب وفيها شخوص بارزة كأنها مسبوكة فى قوالب وكان السماط يزين أيضاً بأطباق من تماثيل السكر على أشكال مختلفة وكانت تباح كل هذه الأصناف للحاضرين وتوزع منها كميات وفيرة على أهل القاهرة والفسطاط .

وكان يصنع فى دار الفطرة العديد من أنواع الحلوى التى يدخل فى تكوينها السكر والعسل وقلوب اللوز والبندق والفستق والزعفران وأنواع الطيب والدقيق ويبدأ العمل لصناعة الحلوى منذ النصف الثانى من شهر رجب ويستمر العمل ليلاً ونهاراً لإعداد الكميات الهائلة من أصناف الحلوى التى توزع فى الأعياد والمواسم وأشهر هذه الأصناف الخشكنانج والبسندود والفانيذ الذى يقال له كعب الغزال وكان يعمل فى دار الفطرة مائة صانع من المهرة فى هذا الفن على رأسهم مقدم للحلاويين ومقدم للخشكنانيين ويخزن فى دار الفطرة ما ينتج من أصناف الحلوى، وكان الخليفة الفاطمى يحضر بنفسه بصحبة الوزير لمشاهدة ما صنع من الحلوى قبل توزيعها، ويبدأ التوزيع من نصف رمضان حتى آخره وكان يخصص لهذه المهمة مائة فراش يحملون أطباق الحلوى إلى أرباب الرسوم المقررة ويتراوح ما يخص كل فرد حسب مكانته فى الدولة من ربع قنطار إلى رطل واحد، ولا يفوت أحد شيئاً من ذلك ويتهاداه الناس فى جميع الأقطار.

كما كان يوزع أيضاً من دار الفطرة الكعك والزبيب والتمر والبندق وكان الدجاج يصنع من أصناف محلاة تسمى الفستقية، والبندقية والخشخاشية والوردية نسبة إلى ما يضاف إليها من هذه الأصناف، ويصف عبد اللطيف البغداد طريقة عمل تلك الأصناف بقوله :

"وذلك أنهم يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات، وسبيل ذلك أنتسلق الدجاج ثم ترمى فى الجلاب ويلقى البندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو ورد ويطبخ حتى يعقد ويرفع، وتسمى هذه الأطبخة بالفستقية والبندقية والخشخاشية والوردية"، وكانت هريسة الفستق من أصناف الحلوى التى تصنع من لحم الدجاج والجلاب والفستق المقشور.

وهناك أصناف متعددة من الحلوى أوردها المؤرخون عرفت فى عهد الدولة الفاطمية ومن أشهر هذه الأنواع "الخبيص" وهى نوع من الحلوى يصنع من دقيق الحنطة مع دهن اللوز أو الشيرج، ثم يضاف إليها بعد الطبخ شئ من السكر والعسل وترفع على النار لتجمد أما الحلوى المسماه "نواطف" فكانت من الأصناف التى تصنع فى دار الفطرة وتقدم على مائدة الخليفة الفاطمى كل يوم خلال شهور رجب وشعبان ورمضان.

ومن أشهر أنواع الحلوى على المائدة المصرية فى العصر الفاطمى "الجوذاب" وكانت صناعتها منتشرة فى الأسواق ويقبل الناس على أكلها.

كما كانت تصنع أنواع متعددة من الحلوى التى يدخل فى تكوينها الأرز واللبن والسمن مثل البهطة واللبنية وكان من عادة الفاطميين توزيع الأرز المطبوخ مع السكر واللبن فى المناسبات المختلفة على أرباب الرسوم والوظائف وخاصة بمناسبة الاحتفال برأس السنة الهجرية.

وكانت القطائف من أصناف الحلوى المنتشرة فى العصر الفاطمى بين الخاصة والعامة، ويزداد الإقبال على تناولها خلال شهر رمضان.

وكانت القطائف من بين الأطعمة التى تقدم فى سحور الخليفة الفاطمى فى شهر رمضان كما كانت تقدم إلى المشتركين فى الاحتفال بليالى رمضان من القراء والوعاظ والصوفية وغيرهم ممن يحتشدون فى القصر بهذه المناسبة.

وقد أسهب الشعراء المعاصرون للدولة الفاطمية فى وصف القطائف وما يستخدم فى صناعتها من الجلاب والمسك والفستق وغيرها.

كما كانت الكنافة من أصناف الحلوى المشهورة فى مصر فى العصر الفاطمى، كما عرف العصر الفاطمى صناعة العديد من الحلوى التى تدخل فى صناعتها الفاكهة وكان الخليفة الفاطمى يتناول إفطاراً فى أول أيام عيد الفطر فى مقدمته صنف من التمور التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وقلوب اللوز وغيرها.

الفاكهة:

امتازت مصر على مر العصور بوفرة إنتاجها من الفاكهة وتنوعه على مدار العام وإقبال الناس على شرائها وكانت أصناف الفواكه المختلفة مثل التفاح والمشمش والخلوخ والعنب من المشتريات اليومية للأسرة المصرية فى القرن الرابع الهجرى.

وكان من رسوم الدولة الفاطمية توزيع الفاكهة على أرباب الوظائف فى الدولة فى الأعياد والمواسم، فكان يوزع فى موسم النيروز من الفاكهة البطيخ والرمان والموز والتمر وغيرها وفى الغطاس يوزع القصب والليمون والنارنج.

ورغم وفرة إنتاج مصر من الفواكه فإن الدولة الفاطمية كانت تستورد الفواكه من الأقطار المحيطة بها، وقيل أن الخليفة العزيز بالله اشتاق فى حضرة وزيره يعقوب بن كلس إلى القراصيا البعلبكية وكانت الرسائل بين القاهرة ودمشق تنقل عن طريق الحمام، فكتب ابن كلس بطاقة يأمر فيها أعوانه هناك بأن يجمع الحمام ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية، وترسل إلى مصر، فلم يمض النهار حتى حضرت القراصيا وقدمها ابن كلس إلى العزيز، ورغم ما فى القصة من مبالغة إلا أنها توضح إقبال رجال الدولة الفاطمية على الحياة والبذخ الذى يصل حد الإسراف فى تحقيق رغباتهم.

سادساً: الشراب:

الخبز هو الطعام الذى لا تخلو منه المائدة المصرية على مر العصور ويعتبر الماء الشراب الرئيسى على تلك المائدة، والمصدر الرئيسى لماء الشرب فى مصر هو نهر النيل وما يتفرع عنه من ترع وقنوات. وكان يفضل شرب ماء النيل من مكان يجرى فيه الماء حتى لا يكون عفنا وكان الماء ينقل إلى الدور والحوانيت عن طريق السقائين الذين يخضعون لمراقبة

المحتسب وأعوانه، وكان المحتسب فى الدولـة الفاطميـة يلـزم السقائين بتغطية ما ينقلونه من ماء للمحافظة على نظافته ورغـم ذلك، فقيل أن مهمة السقائين كانت تقتصر على حمل الماء مـن مصادره الأصلية وتوصيله إلى الناس، دون الالتـزام بإعـداده ليكون صالحاً للشرب، فكان هذا الأمر يقوم به الشاربون أنفسهم وقد أورد المؤرخون العديد من الطرق التى كانت تتبع لتنقية ماء النيل وذلك بترسيب المواد الغريبـة العالقـة بالمـاء باسـتخدام الطباشير وأنواع من الطين وقلوب نوى المشمش، أو بتقطيره فى أوانٍ من الخزف أو الجلود وذلك بعد غليه وتركه يبرد.

وكان عامة المصريين يهتمون بتبريد الماء فـى الـصيف وذلك باستخدام آنية من الخزف والفخار لهذا الغرض وفى الشتاء يوضع الماء فى آنية من الزجاج المدهون، وغالباً ما كان يضاف إلى ماء الشرب القليل من ماء الورد، وأحياناً يبخر الإناء بأنواع الأبخرة الطيبة لتجويد مذاق الماء.

وكان يقدم أثناء الموائد التى تقام فى القصر الفاطمى طوال شهر رمضان إلى الحاضرين "الماء المبخر فى كيـزان الفقـاع" وكانت أوانى الماء المثلج تخرج من عند سيدات القصر الفاطمى ملفوفة فى الأقمشة الفاخرة لتوضع بين يدى القراء فى ليلة آخـر شهر رمضان لتشملها بركة ختم القرآن.

وكان تبريد الماء وغيره من المشروبات يتم باستخدام الثلج فى القصر الفاطمى وفى دور كبار رجال الدولـة، فيـروى أن

خزانة الشراب فى القصر الفاطمى كانت تحمل إليها كميات كبيرة من الثلج وكان لمعظم الأمراء ورجال الحاشية وأرباب الرتب والوظائف راتب يومى من هذا الثلج وكان التثليج يتم بوضع الآنية التى تحتوى الشراب على الثلج حتى يبرد ما فيها.

ومن الأشربة الشائعة فى مصر فى العصر الفاطمى "المرز" وهو شراب يتخذ من القمح وكان العامة يقبلون عليه وخاصة أثناء الاحتفال بالأعياد مثل عيد النيروز و "الشمسى" ويدخل فى صناعته الزبيب والعسل ويصفه المقريزى بأنه "أجود الأشربة".

ومن أكثر الأشربة شهرة فى مصر شراب العسل أو نبيذ العسل الذى يصنع من ماء النيل وقت الفيضان مضافاً إليه العسل وكان هذا الشراب ينقل من مصر إلى سائر الأقطار حتى أنه أطلق عليه "الشراب المصرى" لاختصاص مصر بصناعته.

وكانت صناعة الخمور منتشرة فى العصر الفاطمى ويختص بصناعتها الأقباط فى موسم نضج الكروم فكانت تعتصر الكروم ويضاف إليها العسل. لذلك نجد الخليفة الحاكم عندما أصدر أوامره بمنع الناس من شرب الخمر، حدد كمية ما يباع من العسل بما لا يزيد على ثلاثة أرطال ولا يتجاوز ما يباع من العنب عن أربعة أرطال وحذر من اعتصاره.

ونحن لا نصادف مثل هذا الحظر على الخمور إلا فى عد الخليفة الحاكم وإن كانت العادة المتبعة أن يحرم تناول الخمر

ابتداء من أول شهر رجب حتى آخر رمضان فتغلق جميع قاعات الخمارين ويمنع بيع الخمر.

وكان "شراب الفقاع" من المشروبات المنتشرة فى العصر الفاطمى ويبدو أن بعض أنواعه كانت مسكره لذلك حرم الخليفة الحاكم شرب الخمر والفقاع.

وهناك عدة أنواع من الفقاع كانت منتشرة فى ذلك الوقت من بينها "شراب الكشكاب" الذى كانت تنتشر صناعته فى المدن الساحلية وهو يصنع من دقيق الشعير ومواد أخرى، و"شراب الأقسما" وكان يصنع من السكر الأبيض النقى المضاف إلى الماء وماء الورد ويطيب بالمسك ويبرد بالثلج، كما كان يطلق عليه "الخرجى"، وكان يصنع من شعير يبل حتى يبدأ فى الإنبات ثم يجفف ويسحق ويضاف إليه دقيق الحنطة، ثم يسكب عليهما ماء فى درجة الغليان، ويترك الشراب حتى يتخمر ثم يأخذ ما يصفو من مائة بعد مثل أصناف الأطعمة الأخرى.

ورغم ما كانت تقدمه الدولة الفاطمية لموظفيها من أصناف الطعام والشراب، فإن تأنق الفاطميين فى هذا المجال وشدة إسرافهم فى البذخ قد ترك آثاره على من حولهم "حتى أن الخدم والسائس من غلمانهم ينفق فى كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين ديناراً، لسعة أحوالهم".

المرأة فى مصر الفاطمية

كانت القصور الفاطمية فى مصر تضم أعداد كبيرة من النساء ، وقد تنوعت مكانتهن الاجتماعية ، وما يقمن به من مهام ووظائف داخل القصر . فكان على رأسهن زوجات الخليفة وحظاياه وجواريه ، بالإضافة إلى الخادمات اللاتى تسند إليهن أعمال مختلفة فى القصر ، وكانت هناك أنواع من الوظائف لا يشغلها إلا النساء مثل الإشراف على المائدة الشريفة الخاصة بالخليفة، وكان يقوم بهذا العمل امرأة تحمل لقب "المعلمة مقدمة المائدة". كما كانت تتولى خزانة الملابس الخاصة بالخليفة وتعرف "بخزانة الكسوة الباطنة" امرأة تلقب "بزين الخزان" ويساعدها ثلاثون جارية "فلا يغير الخليفة أبداً ثيابه أبداً إلا عندها".

وكانت "خزانة الشراب" وهى إحدى خزائن القصر الهامة يسند الإشراف عليها أيضاً إلى إحدى نساء القصر المستخدمات بالإضافة إلى عدد كبير من النساء اللاتى يقمن بالوظائف المختلفة فى القصر كانت يطلق عليهن "المستخدمات أرباب الصنائع" كما كان يقوم على خدمة زوجات الخليفة وحظاياه من المقربين إليه عدد من النساء يطلق عليهن "المستخدمات عند الجهات العالية" وكان بعضهن يعملن فى خدمة الأمراء من أرباب الوظائف فى القصر وخاصة من الأستاذين المحنكين.

وكان بالقصر عدد من الجاريات اللاتى يجدن فنون الغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية والرقص لإدخال السرور على الخليفة وحاشيته فى مجالسه الخاصة.

أما عن الألقاب التى حظت بها النساء فى هذا العصر فهى نادرة ، ومن هذه الألقاب ما كان يطلق على زوجة الخليفة التى كانت تتمتع بمكانة مرموقة فى القصر ، وكانت تلقب "بالجهة العالية" أو " الجهات العالية " فى حالة تعددهن أو " الجهة المعظمة" وقيل أن زوجات وحظايا الأمراء وكبار رجال الدولة لم يكن من حقهن التمتع بهذا اللقب ، وكان يطلق عليهن "الجهة" فقط وكانت زوجة الخليفة أحياناً تنسب إلى زوجها مثل "السيدة علم الآمرية" زوجة الخليفة الآمر، وكان اللقب المنتشر بين نساء القصر من الأميرات بنات الخلفاء وأقاربهن لقب "السيدة الشريفة".

وكانت زوجات الخلفاء والأميرات وكبار نساء القصر يحزن الثروات الضخمة واشتهرت الكثيرات منهن بالثراء والبذخ، كما كانت بعض جوارى القصر يقتنين ثروات كبيرة ، ومن أمثلة ذلك عائشة جارية الأمير عبدالله بدر بن المعز التى توفيت سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤م "وكانت من وجوه عجائز القصر وخلفت أربعمائة ألف دينار" كما كان بعضهن يملكن العقارات ولدور والإقطاعات وكانت هذه الأملاك تؤجر لحسابهن ويحصلن على ريعها.

وقد لعبت بعض نساء القصر دوراً مؤثراً في مجرى الأحداث فى العصر الفاطمى ، وكان لهن تأثير كبير فى بعض الظروف سياسياً واجتماعياً ، والمعروف أن ست الملك ووالدتها المسيحية كانتا لهما تأثيراً كبيراً على العزيز فى محاباته لأهل الذمة، ويقال أن ست الملك كانت الرأس المدبر وراء اغتيال أخيها الحاكم بأمر الله كما كان لأم الخليفة المستنصر نفوذ كبير فى الدولة الفاطمية وقد انعكس هذا النفوذ على المشرف على ديوانها أبى سعيد إبراهيم بن سهل التسترى الذى سيطر عن طريقها على شئون الدولة.

وكانت المرأة فى بعض الأحوال تقوم بالتجسس لصالح من ترغب فى نصرته والذود عنه ، فيروى أن أم الوزير الأفضل بن بدر الجمالى، عندما كان ابنها غائباً عن القاهرة فى مهمة القضاء على ثورة نزار وأعوانه فى الإسكندرية، كانت تندس بين الناس فى الأسواق والجوامع وهى متنكرة ، وتلقى على أسماع الناس ذماً فى الأفضل مدعية أن لها ابناً فى جيشه تخشى عليه من الحرب ، وتستمع ما يعلق به السامعين على ذمها ، ولما عاد الأفضل بعد انتصاره نقلت إليه ما كان يقال عنه، وانتقم الأفضل من الذين قدحوا فيه، وأحسن إلى من قال فيه خيراً. كما كان للخليفة الآمر جارية على درجة كبيرة من العلم والثقافة وتجيد معرفة علوم الطب والنجوم والموسيقى وكانت تحب الآمر وتحافظ عليه من المؤامرات التى كان يدبرها ضده وزيره

الأفضل لدس السم له وقتله ، وكان لها دور كبير في تدبير مؤامرة اغتيال الأفضل وزوال خطره عن الخليفة.

وقد تدخلت عمة الخليفة الحافظ فى مؤامرة اغتيال الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦١م الذى كان يسيطر على أمور القصر ولا سيما بعد أن زوج ابنته للخليفة ، فتبرمت نساء القصر من وطأته وتسلطه عليهن وأرادت عمة العاضد التخلص منه فأرسلت "الأموال إلى أمراء المصريين ، ودعتهم إلى قتله ، فلما دخل القصر ضربوه بالسكاكين فجرحوه جراحات مهلكة".

أما عن النساء من طبقة العامة ، فقد كانت المرأة تقوم بالأعمال العادية فى نطاق الأسرة كربة بيت ، بالإضافة إلى ذلك فإن بعض الأعمال كانت تباشرها النساء بوجه خاص مثل غسل الموتى من النساء والمزينات ، والقوابل ، وكان بعضهن يعملن فى التجارة وخاصة بيع الغزل والملابس الجاهزة.

وكانت بعض النساء الفاضلات يعملن بالوعظ وإلقاء الدروس الدينية، ومن أمثلة ذلك السيدة أم الخير الحجازية وكان لها رباط باسمها فى القرافة الكبرى ، وكانت تعقد مجالس الوعظ للنساء فى جامع عمرو بن العاص.

وكانت النساء العجائز والأرامل موضع عطف ورعاية من الدولة وخاصة من جانب نساء القصر وزوجات الخلفاء ، وكانت النساء الثريات يشعرن بحاجة بنى جنسهن إلى تأمين حياتهن ومستقبلهن خاصة بعد وفاة الزوج ، فقيل أن زوجة الخليفة الآمر

أقامت داراً خاصة فى سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١م للعجـائز الأرامـل يجدن فيها كافة حاجتهن وتجنبهن مذلـة السـؤال . كمـا كـان يخصص لعجائز القصر وأقارب الأشراف قصر خاص للسكنى يعرف بالقصر النافعى.

وكانت القواعد الاجتماعية ترمى إلى المحافظة على المرأة ومنع تعرضها للمضايقات فى حياتها العامة والخاصة ، فكان من المحظور أن يختلى رجل بامرأة ليست له بمحرم فى طريـق أو غيره ، وكان المحتسب يراقب الآداب العامة ويتفقد المواضع التى يكثر بها ازدحام النساء فيها مثل الحمامات وسوق الغزل والكتان وشطوط الأنهار، ويمنع الشباب من الانفراد بالنساء إلا فى عمل يتعلق بالبيع والشراء.

وكانت التقاليد تقضى بأن يخصص مكـان للنسـاء فـى الجوامع ومجالس الوعظ بحيث لا تصل إليهن عيون الرجـال ، وبعد الانتهاء من الصلاة أو السماع للوعظ كن يسلكن طريقاً غير الذى يسلكه الرجال منعاً لانتهاك حرمة المرأة.

كما كان لا يجوز التطلع إلى عورات الجيران من أسـطح الدور أو النوافذ ويمنع الرجال من الجلوس فى طرقات النسـاء وكذلك يمنع النساء من الجلوس على أبواب دورهن حتى لا تتطلع إليهن أعين الرجال وكان المحتسب يشرف على تنفيذ هذه الأمور ويعاقب من يخالفها من الجنسين.

ورغم ذلك فإن هذه القواعد الأخلاقية لم تكن تنفذ بدقـة ، فالنساء كن يشتركن مع الرجال فى معظم الاحتفـالات الخاصـة بالأعياد والمناسبات المختلفة وكانت تحدث أثناء ذلك العديد مـن مظاهر الفسق والانحلال، كما كان للمرأة حرية الخـروج إلـى الأسواق وحضور مجـالس الـوعظ والـذهاب إلـى المـساجد والحمامات ، وكانت للنساء حمامات خاصة بهن، كما كن يخرجن إلى الشواطئ للنزهة والفرجة.

ويبدو أن بعض النساء قد أسأن اسـتخدام الحريـة التـى يتمتعن بها ، وكن يخرجن ليلاً ويختلطن بالرجال، ولم يـستجبن لزجر أزواجهن أو من يعولهن لمنعهن من ذلك مما دفع الخليفـة الحاكم إلى إصدار قرار فى سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠١ بمنع النساء من الخروج من دورهن بعد العشاء.

وقد تعرضت المرأة فى عهد الحـاكم إلـى العديـد مـن القرارات العنيفة والأفعال التى تتسم بالقسوة ، ولم يسلم من ذلك نساء القصور أو العامة منهن.

ويروى أن الحاكم مر على إحدى حمامـات النـساء فـسمع صيحاتهن وأصوات غنائهن فأمر بأن يبنى عليهن باب "فسد علـيهن الحمام حتى متن جميعاً ويقال أنه بلغ به الأمر أن أخرج من قـصره جماعة من حظاياه وأمهات أولاده ووضـعن فـى صـناديق مثقلـة بالحجارة وأغلقت عليهن وأمر بإلقائهن فى النيل كما سد على بعـض الجوارى والحظايا حجرة فى القصر وتركهن حتى الموت.

ويبدو أن الحاكم كان مدفوعاً إلى ذلك بشدة الغيرة على نسائه وعدم ثقته فى المرأة بوجه عام وتوقعه الخيانة منها، ولهذا كان يتجسس على النساء لكشف أسرارهن. وقد نجح الحاكم بهذه الطريقة فى الحد من موجة الفسق والفجور فى عهده ، فكان ينتقم بقسوة ممن "يطلع على فسقهم فضاق الحال، واشتد على الفسق والنساء ذلك ، ولم يتمكن أحد منهم أن يصل إلى أحد إلا نادراً.

ولم تسلم نساء البيت الفاطمى من قرارات الحاكم ، فقد صادر أملاك "والدته وعماته وحرمه وخواصه من النساء" وحرمهن من كافة ممتلكاتهن وإقطاعاتهن . وقيل أنه اتهم اخته ست الملك فى شرفها وكان يحقد عليها ويفكر فى قتلها.

وكانت أعنف القرارات الاجتماعية التى أصدرها الحاكم سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١١ ضد المرأة هو قراره بمنع النساء نهائياً من الخروج من دورهن إلى الطرقات ليلاً أو نهاراً حتى أنه حرم عليهن الظهور على أسطح المنازل. فاحتبست النساء فى دورهن ، وأغلقت حماماتهن ومحيت صورهن من على جدرانها ، وشق على التجار وباعة السلع النسائية ، وتوقف الأساكفة عن عمل خفاف النساء وتعطلت حوانيتهم.

وقد استثنى الحاكم من هذا القرار النساء العاملات فى غسل الموتى والمزينات من الإماء ، والإماء اللاتى يبعن فى سوق الرقيق ، والنساء اللاتى يتظلمن إلى مجلس الحكم والخارجات إلى الحج ، ووضع لخروج هؤلاء ضوابط شديدة ،

فلا تخرج إحداهن من دارها إلا برقعة يوقع عليها المحتسب ويندب متولى الشرطة من يثق فيه من رجاله لمصاحبة المرأة إلى مقصدها ثم إعادتها.

ولما استمر الحال على ذلك ضاقت سبل العيش بالنساء، وخاصةمن لا عائل لهن يسد مطالبهن من خارج الدور، واشتكى التجار إلى الحاكم من كساد بضائعهم فسمح لهن بأن يحملوا ما يبيعونه فى الأسواق، ويطوفون به فى الدروب، ويبيعونه للنساء فى دورهن على أن توضع البضائع المباعة فى وعاء له ساعد طويل كالمغرفة، فتأخذ المرأة حاجتها وتضع الثمن دون أن يراها البائع واستمر هذا المنع سبع سنين إلى خلافة الظاهر سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ حتى أطلقت ست الملك للنساء حرية الخروج من دورهن والتصرف فى أمورهن .

سقوط الخلافة الفاطمية

تجمعت عدة عوامل ساعدت على ضعف الدولة الفاطمية وأدت فى النهاية إلى سقوطها وقيام دولة أخرى هى الدولة الأيوبية ومن هذه العوامل:-

أولاً: الشك فى النسب الفاطمى فعلى الرغم من الجهود التى بذلوها لإثبات صحة النسب الفاطمى إلى العلويين، إلا أنهم لم يوفقوا على ذلك ولا شك أن ذلك كان له صدى فى نفوس المسلمين.

ثانياً: لم يوفق الفاطميون فى استمالة المصريين إليهم، فعلى الرغم من الجهود التى بذلوها فى ذلك، لم تتقبل أغلبية المسلمين المصريين المذهب الشيعى.

ثالثاً: كان لتزايد نفوذ الوزراء العظام الذين بدأوا ببدر الجمالى أثره فى ضعف الخلافة الفاطمية، لاستبدادهم بالحكم والسلطة دون الخلفاء، بالإضافة إلى تنافسهم على الحكم، وما أدى إليه هذا التنافس من تدخل القوى الخارجية فى شئون مصر وهو الأمر الذى انتهى بسقوط الدولة الفاطمية.

كانت هذه بعض العوامل التى أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية، وبينما كانت الخلافة الفاطمية قد بدأت تعانى من الضعف والانحلال، ظهر خطر جديد يهدد كيان هذه الدولة وهو

الخطر الصليبى"والصليبيون أو الحركة الصليبية مجموعة حملات خرجت من أوروبا للاستيلاء على بعض ممتلكات المسلمين واستطاعوا الاستيلاء على بعض المدن فى بلاد الشام".

وبدأ الصليبيون بعد نجاحهم فى الاستيلاء على بلاد الشام يتطلعون إلى مصر، خاصة بعد أن ثبت عجز الدولة الفاطمية عن ردهم عن بلاد الشام.

أدى انتصار الصليبين على المسلمين ونجاحهم فى الاستيلاء على بعض مدن بلاد الشام إلى نهوض بعض الزعماء المخلصين فى الشرق الإسلامى ودفعهم إلى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين وأدت حركة الجهاد فى القرن السادس الهجرى إلى بروز عماد الدين زنكى أتابك الموصل وابنه نور الدين محمود على مسرح التاريخ.

بدأ نور الدين محمود يحاول ضم مصر لإقامة جبهة إسلامية متحدة ضد الخطر الصليبى وأصبحت مصر ميداناً رئيسياً فى الصراع بين نور الدين محمود والصليبين وقام الصليبيون بغزو مصر سنة ٥٥٨هـ، لذلك لرأى نور الدين أن يسرع بإرسال جيوشه إلى مصر لحمايتها من السقوط فى أيدى الصليبيين.

أرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة ٥٥٩هـ بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ابن أخى شيركوه واستمر الصراع بين الصليبين ونور الدين محمود من أجل السيطرة على

مصر حتى نجح شيركوه فى دخول القاهرة سنة ٥٦٤هـ واستدعاه الخليفة الفاطمى العاضد وخلع عليه خلعة الوزارة، ولكن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى.

حاول الصليبيون غزو مصر مرة أخرى لكن حملتهم فشلت سنة ٥٦٥هت، مما أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين الأيوبى فى مصر.

رأى نور الدين محمود تحقيقاً للوحدة المذهبية فى العالم الإسلامى ضرورة إسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية ليصبح العالم الإسلام كله تحت حماية قوة كبيرة تدين بالمذهب السنى "أى مذهب الدولة العباسية، فنور الدين محمود كان سنياً" لذلك أرسل إنذاراً نهائياً فى سنة ٥٦٦هـ إلى صلاح الدين يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسى المستضئ محل اسم الخليفة الفاطمى العاضد فى خطبة الجمعة وطلب منه الإسراع فى التنفيذ.

بادر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة لأنه لم يكن أقل تحمساً من نور الدين للقضاء على الخلافة الفاطمية وكان سنياً شافعياً، لذلك تم الدعاء فى أول جمعة من عام ٥٦٧هـ للخليفة العباسى المستضئ، وحدث الإنقلاب فى هدوء.

وقيل أن الخليفة الفاطمى توفى بعد ذلك الإنقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته، وسقوط خلافته لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه، أمر بإخفاء الخبر عنه وبعد ذلك اتخذ صلاح

الدين عدة إجراءات للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية فى مصر.

على هذا النحو سقطت الدولة الفاطمية لتعود للعالم الإسلامى وحدته المذهبية وتصبح الخلافة العباسية هى الخلافة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بولائهم الروحى .

المصادر والمراجع

المصادر:

١- أبو المحاسن: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – جـ ٤ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

٢- المقريزى : تقى الدين أحمد

١- تاريخ المجاعات فى مصر (إغاثة الأمة بكشف الغمة) ١٩٥٦م.

٢- المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية الجزء الأول مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – بدون تاريخ.

٣- ابن ميسر : محمد بن على بن يوسف (تاريخ مصر)

المراجع:

١- إبراهيم رزق الله أيوب

التاريخ السياسى الفاطمى – منشورات جامعة سبها – الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٢- الشيخ الأمين عوض الله:

الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى – دار المجمع العلمى بجدة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م.

٣- أمينة أحمد الشوربجى:

رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

٤- جمال الدين الشيال:

تاريخ مصر الإسلامية - الجزء الأول ، دار المعارف ١٩٦٧م.

٥- حسن إبراهيم حسن:

الفاطميون فى مصر - القاهرة ، ١٩٣٢م.

٦- عبد المنعم عبد الحميد إبراهيم سلطان:

المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى - دراسة تاريخية وثائقية ، دار المعارف ١٩٨٥م.

٧- عبد المنعم ماجد :

الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه - القاهرة ، ١٩٥٩م.

٨- على حسن الخربوطلى:

مصر العربية الإسلامية الجيزة ١٩٦٣م.

٩- محمد جمال الدين سرور:

١- الدولة الفاطمية فى مصر دار الفكر العربى ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م.

٢- سياسة الفاطميين الخارجية - دار الفكر العربى ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧م.

١٠- محمد حمدى المناوى:

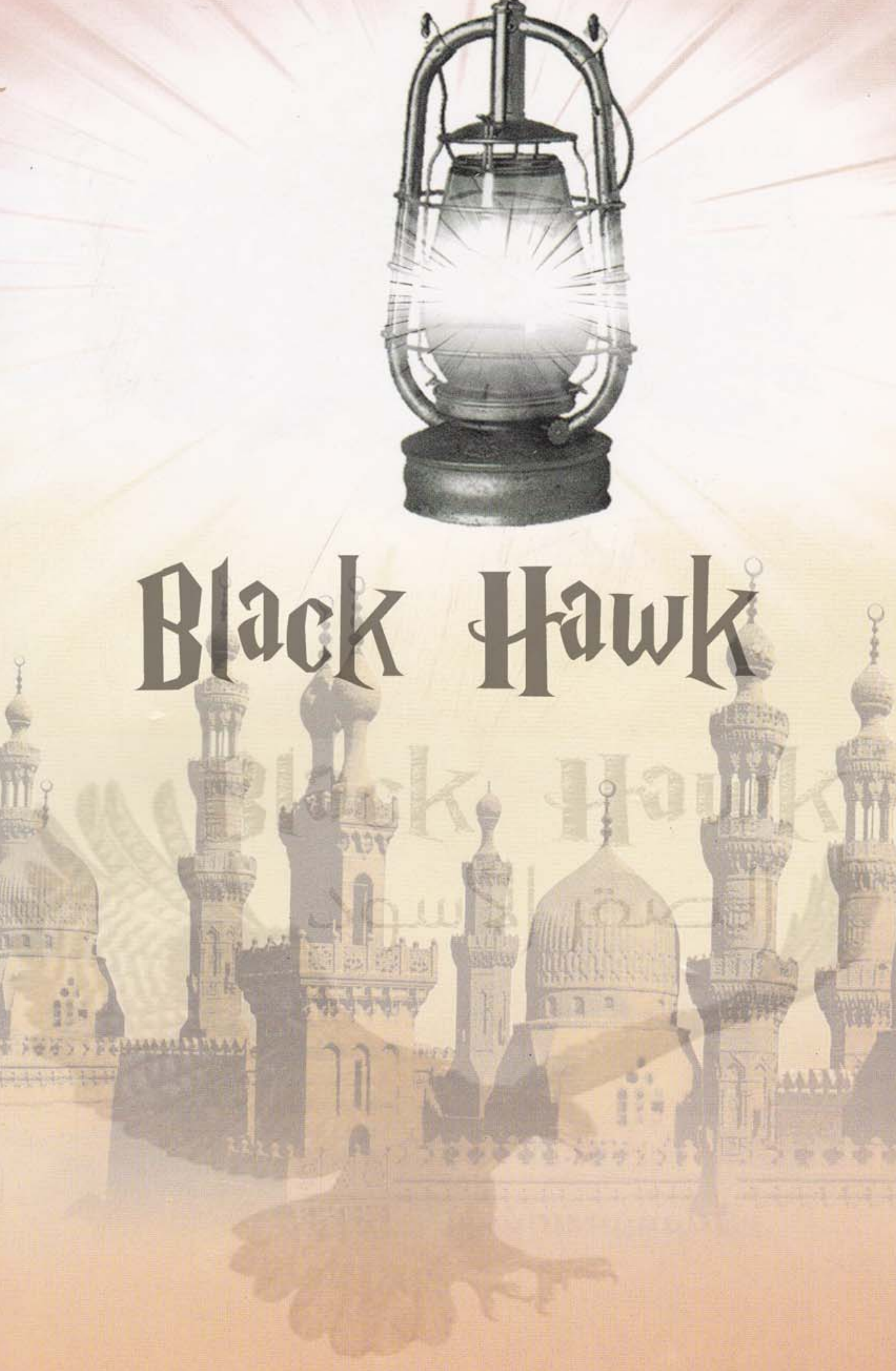
الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى - القاهرة دار المعارف - ١٩٧٠م.

١١- محمود عرفة محمود:

الدولة الفاطمية.

١٢ - منى حسن محمود:

مصر الإسلامية - دار النهضة العربية ، ١٩٩٠ - ١٩٩١م.


Black Hawk